
روايات مصرية
سلسلة
الأعداد
الخاصة
31
د. نبيل فاروق
الدائرة
ساحر الكتب

« الماضى مثل المستقبل ، لا نهائى ، وموجود فقط كنطاق ممتد من الاحتمالات »

ستيفن هوكينج

الفصل الأول

*** القاهرة أوَّل يوليو ١٩٤٥م :**

هزَّ ذلك الموظف الحكومى رأسه فى حيرة ، وهو يتطلَّع إلى الرمال ، الممتدَّة أمامه ، إلى آفاق البصر ، ثم عاد يهز رأسه ، وهو يلتفت إلى الرجل طويل القامة ، أبيض البشرة ، الذى يقف هادئًا ، فى حلته الأنيقة السوداء ، وطربوشه الأحمر الزاهى المفرود ، وشاربه الكث ، الذى يجمع بين شعيرات سوداء وحمراء ، واتجه نحوه خطوتين ، وهو يسأله فى صوت ولهجة ، شفتا بكل وضوح ، عما يعتمل فى نفسه ، من حيرة ودهشة :

ـ ولكن لماذا ؟!

ابتسم الرجل ابتسامة هادئة ، وهو يستند إلى سيارته الفاخرة ، من طراز العام نفسه ، مجيبًا :

ـ لدى أسبابى .

أشار الموظف بيده إلى بحر الرمال مترامى الأطراف ، وهو يقول ، دون أن تفارقه دهشته أو حيرته :

ـ ولكنها مجرَّد صحراء ، وبعيدة كل البعد عن العمران .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ ولو أردت نصيحتى ، فهى لا ولن تساوى شيئًا ، ولو حتى بعد قرون من الآن .

وربَّت على كتفه ، مضيفًا :

ـ وفِّر نقودك يا بك ، واختر منطقة أخرى .. فى (مصر الجديدة) أو العباسية مثلا .

أزاح الرجل يد الموظف عن كتفه ، وهو يقول بكل صرامة :

ـ هذه المنطقة تروق لى .

تردَّد الموظف بضع لحظات ، ثم عاد يهز رأسه فى توتر :

ـ لست أدرى حتى ما إذا كانت متاحة للبيع ، أم ..

قاطعه الرجل فى صرامة أكثر :

ـ عندى تصريح بشرائها ، من دولة الباشا رئيس وزراء جلالة الملك .

تنهَّد الموظف ، وهو يهز رأسه للمرة الألف ، مغمغمًا :

ـ فليكن .. سنعود إلى المكتب لاستكمال الإجراءات .

قالها ، واتجه إلى حيث سيارة الرجل ، ثم توقَّف قبل أن يدخلها ، ملوِّحًا بسبَّابته فى تحذير :

ـ ثمن المساحة التى طلبتها ، لن يقل عن ألف جنيه مصرى .

غمغم الرجل ، وهو يحتل مقعد قيادة السيارة :

ـ أعلم هذا .

وانطلق بالسيارة فوق الرمال ، التى تطلَّع إليها الموظف مرة أخرى ، وعاد يهز رأسه ، مغمغمًا :

ـ للناس فيما يعشقون مذاهب .

ومع انطلاق السيارة ، ظل السؤال حائرًا فى نفسه ..

ما الذى يمكن أن تساويه تلك الصحراء ؟!

ماذا ؟! ..

* * *

*** الإسكندرية منتصف سبتمبر ٢٠١٨م :**

« الزمـــن .. ذلـك البعـد الرابـع ، الـذى اعتمـدت عليـه كـل معـــادلات (ألبرت أينشتاين) تقريبًا .. »(*).

نطـق الدكتـور (طارق سليمـان) ، أستـاذ الفيزياء التجريبيـة ، فـى جامعـة (القاهـــرة) ، تـلك العبارة ، فـى تلك الندوة ، التـى استضافتـــه فيهـا مكتبـــة (الإسكندريـــة) ، وراح يشير بيديــه كعادتـــه ، وهو يواصـل ، مديـرًا عينيه فى الحاضرين .

ـ ووفقًا لنظريته ، فالزمن بعد ، مثل الطول والعرض والارتفاع ، وباعتباره بعدًا ، فالتحرك فيه إلى الأمام ، أو الخلف ، ممكن تمامًا نظريًا .

رفع أحد الحاضرين يده ، متسائلًا :

ـ أيعنى هذا أنك تؤيد فكرة السفر عبر الزمن ؟!

صمت الدكتور (طارق) لحظات مفكرًا ، قبل أن يجيب :

ـ (أينشتاين) يقول إن هذا ممكن .

سأله الرجل :

ـ وما رأيك أنت ؟!

(*) ألبرت أينشتاين : (١٤ مارس ١٨٧٩ ـ إبريل ١٩٥٥م) ، عالم فيزيائى ألمانى المولد ، سويسرى وأمريكى الجنسية ، يشتهر بـ (أبو النسبية) ، حيث إنه صاحب النظريتين ، (النسبية الخاصة والعامة) الشهيرتين ، والتى هما اللبنة الأولى للفيزياء الحديثة .. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٢١م ، وأدت الورقة البحثية التى فاز بها ، إلى تفسير الكثير من الظواهر العلمية ، التى فشلت الفيزياء الكلاسيكية فى إثباتها .

أشار بيديه كعادته :

ـ وفقًا لحسابات (أينشتاين) ، فالسفر عبر الزمن ممكن ، ولكنه يحتاج إلى طاقة هائلة ، تفوق ما تستهلكه مدينة كبيرة فى شهر كامل .

تساءل الرجل :

ـ لو افترضنا جدلا ، أن تلك الطاقة ، توفَّرت ، فهل يمكننا عندئذ ، السفر إلى الماضى أو المستقبل ؟!

أجابه الدكتور (طارق) فى سرعة :

ـ العالم الروسى (تشيرنوبروف) قال ، عام ١٩٧٧م ، إنه قد صنع بالفعل آلة زمن(*) ، يمكنها السفر إلى المستقبل ، وهو لم يعط تفاصيل دقيقة ، عن آلته ، وكيفية عملها ، ولكن بعض الوثائق تقول : إن بعض التجارب الإيجابية قد نتجت عن آلته(**) .

تساءل آخر ، وقد أثار الأمر شغفه :

ـ وماذا عن الماضى؟!

هزَّ الدكتور (طارق) كتفيه ، وأشار بيده :

ـ (أينشتاين) قال إننا نحتاج إلى طاقة هائلة أيضًا للسفر إلى الماضى ، وهى بقدر الطاقة اللازمة للسفر إلى المستقبل ، مع فارق جوهرى للغاية .

استند بكفيه على منصة الندوة ، ومال إلى الأمام ، مضيفًا :

(*) حقيقة : أعلنها العالم الروسى (فاديم ألكسندروفيتش تشيرنوبروف) .

(**) حقيقة علمية .

ـ إنها طاقة سلبية(*) .

سألته واحدة من الحاضرات فى دهشة :

ـ وما هى تلك الطاقة السلبية ؟!

ابتسم معتدلًا :

ـ سلى (أينشتاين) .

ضجت القاعة بالضحك ، فالتقط مشرف الندوة الميكروفون ، وقال :

ـ سنعتبر هذا آخر أسئلة الندوة .. لقد تجاوزت موعدها بنصف ساعة كاملة .

قضى الدكتور (طارق) بعدها ما يقرب من نصف ساعة أخرى ، فى توقيع نسخ كتابه الجديد (الفيزياء والحياة) ، وبينما يوقع إحدى النسخ ، سمع أحدهم يسأله فى لهجة شديدة الهدوء ، وشديدة الحزم فى الوقت ذاته :

ـ وماذا لو أن هناك سبلًا أخرى ، بخلاف تلك الطاقة السلبية المزعومة ؟!

غمغم ، دون أن يرفع نظره إليه :

ـ مثل ماذا ؟!

أدهشه الجواب :

ـ باستخدام المجال الموحَّد .

رفع عينيه ، يتطلَّع إلى صاحب السؤال ..

كان رجلًا أبيض البشرة ، طويل القامة ، شديد الأناقة ، له شارب ضخم ، لا يتناسب مع طبيعة الزمن ، فتطلَّع إليه لحظة ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

ـ وماذا تعرف ، عن نظرية المجال الموحد ؟!

(*) حقيقة علمية .

ابتسم الرجل ابتسامة هادئة ، وهو يلتقط النسخة من يد الدكتور (طارق) ، مجيبًا :

ـ الكثير .

ثم تراجع ليختفى وسط الحشد ، الملتف حول الدكتور (طارق) ، الذى نهض ليتابعه ببصره ، ولكن ، ولدهشته الكبيرة ، لم يجد له أثرًا .. أى أثر ..

***

*** الجيزة أغسطس ٢٠١٤م :**

« ليس هناك من شك » ..

قالها الدكتور (طه عبد الودود) الأثرى المعروف ، وهو يطالع شاشة ذلك السونار الأرضى الرقمى الحديث ، قبل أن يستطرد ، فى انفعال شديد :

ـ هناك فراغ كبير ، أسفل (أبى الهول) .

غمغم مساعده (مسعد) فى لهفة :

ـ مخزن الحكمة .

صمت الدكتور (طه) لحظات ، ثم هزَّ رأسه ، وهو يجفف عرقه :

ـ أسطورة قديمة ، لا تستند إلا لروايات ، تناقلها الأقدمون .

تراجع (مسعد) ، قائلًا فى شبه شرود ، كما لو أنه يستعيد ذكرى جميلة :

ـ مازلت أذكر ما سمعته منذ طفولتى عن سكان (أطلانتس) ، تلك القارة الغارقة ، الذين نجوا من الكارثة ، وأتوا إلى (مصر) ، وأودعوا كل أسرار علومهم وحكمتهم ، فى مخزن سرى ، أسفل (أبى الهول) .

عاد الدكتور (طه) يهز رأسه :

ـ مجرَّد خيالات ، لم يثبتها العلم قط .. (أطلانتس) نفسها لم يثبت وجودها أبدًا ، حتى هذه اللحظة .. كل ما لدينا عنها محاورتان مسجلتان لـ (أفلاطون) ، وهما (تيمابوس) و(كريتياس) ، اللتين يروى فيهما حكاية قارة افتراضية حكمت العالم ، قبل الميلاد بآلاف السنين ، وبلغت شأنًا عظيمًا من التطور والحضارة ، قبل أن تتعرَّض لكارثة ، أغرقتها كلها ، والمؤمنون بوجودهما ، ما زالوا يبحثون عن موقعهما ، حتى يومنا هذا (*) .

اعتدل (مسعد) فى حماس :

ـ لو أننى منهم لفعلت المثل .

ابتسم الدكتور (طه) ، وهو يجفِّف عرقه مرة أخرى :

ـ حقًّا .

واصل (مسعد) بنفس الحماس :

ـ لقد تصوَّر الكل لعقود ، أن (طروادة) كانت مجرّد أسطورة ، ثم جاء الألمانى (هنريك شيلمان) وكشف أطلالها ، وأثبت أن الأسطورة حقيقة ، فى نهايات القرن الثامن عشر (**) .

صمت الدكتور (طه) لحظات مفكرًا ، ثم هزَّ رأسه مغمغمًا :

ـ من يدرى ؟!

فاجأهما صوت هادئ ، يقول فى رصانة :

ـ ربما يكون هذا قريبًا .

(*) حقيقة .

(**) حقيقة تاريخية .

التفت الاثنان إليه فى دهشة ..

كان رجلًا طويل القامة ، أبيض البشرة ، أنيق الملبس ، على نحو يتعارض مع موقع حفر أثرى ، وكانت لهجته تجمع بين الهدوء والحزم معًا ، على نحو يوحى بأنه اعتاد دومًا ، أن يكون فى موقع القيادة ..

وفى دهشة متوترة ، هتف الدكتور (طه) :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

أجابه الرجل بنفس اللهجة ، التى اكتست بالكثير من الثقة :

ـ لا يوجد ما يمكنه أن يمنعنى .

العجيب أن مظهره ، واللهجة التى تحدَّث بها ، جعلتهما يكتفيان بهذه الإجابة ، ويكتفيان بتبادل نظرة قلقة ، قبل أن يتساءل (مسعد) :

ـ إلى ماذا تستند فى أن الكشف سيكتمل قريبًا ؟!

ظهر شبح ابتسامة واثقة ، على ركن شفتى الرجل ، وهو يقول :

ـ لو راجعت صور هذا السونار البدائى ، ستجد الظلال أكثر فى الجزء السفلى على الجانبين ، وهذا يوحى بوجود ممر ، يقود إلى تلك الحجرة الكبيرة ، أسفل التمثال .

نقل كلاهما بصره ، بين الشاشة والرجل ، وغمغم (مسعد) :

ـ هذا صحيح بالفعل ؟!

أما الدكتور (طه) ، فلم ينبس ببنت شفة ، وقد امتلأ دهشة .. ولسببين ..

فالرجل وصف أحدث سونار أرضى رقمى ، أبدعته عقول العلماء ، بأنه بدائى ..

ثم إنه وصف المشهد على الشاشة بدقة ..

على الرغم من أنه لم يلق نظرة واحدة إليها ..

تضاعفت دهشته ، عندما تابع الرجل ، فى ثقة بدت له مخيفة :

ـ سيلمع اسمك كثيرًا ، مع نهايات العقد الثانى ، من القرن الحادى والعشرين يا دكتور (طه) ..

غمغم الدكتور (طه) فى دهشة :

ـ كيف يمكنك أن تتنبأ بأمر كهذا ؟!

بدا الرجل أكثر حزمًا ، وهو يجيب :

ـ ليست نبوءة .

جاء دور (مسعد) ؛ لينقل بصره بين وجهى الرجل والدكتور (طه) ، الذى حمل صوته لمحة من العصبية ، وهو يسأل :

ـ من أين إذن ...

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ سأجيب كل أسئلتك وتساؤلاتك ، عندما نلتقى غدًا يا دكتور (طه) .

لم يذكر أبدًا أن الرجل كان يحمل شيئًا فى يده ، إلا عندما مدَّ تلك اليد إليه ، حاملًا بطاقة ذهبية صغيرة ، وهو يضيف :

ـ فى الموعد والمكان المحددين هنا .

التقط الدكتور (طه) البطاقة ، فى شىء من الحذر ، وقرأ عليها اسم فندق شهير ، ثم رفع عينيه ، إلى حيث يقف الرجل ، متسائلًا فى عصبية :

ـ وهل تفترض ..

بتر عبارته فى دهشة ، وتلفّت حوله فى توتر ، وهو يسأل (مسعد) :

ـ أين ذهب ؟!

أجابه (مسعد) ، وهو ينهض :

ـ ترك لك البطاقة ، وانصرف على الفور .

اندفع الدكتور (طه) ، خارج خيمته ، وهو يهتف فى غضب :

ـ من يتصوّر نفسه هذا الـ ..

مرة أخرى ، بتر عبارته ، بكل دهشته البالغة ..

فمن حوله ، كان عمال البعثة الأثرية يعملون ، والصحراء من خلفهم ممتدّة ، ولا أثر لذلك الرجل !

على الإطلاق ..

* * *

* كاليفورنيا يناير ٢٠١٩م :

الدكتور (رياض يوسف) ، واحد من أبرز علماء الكيمياء ، فى العالم كله تقريبًا .. من أصول مصرية ، ويحمل الجنسية البريطانية ، ويقيم فى ولاية (كاليفورنيا) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ..

والدكتور (رياض) أشبه بالعلماء ، الذين يطالعوننا فى أفلام سينما الستينيات ؛ فهو منشغل بالعلم حتى النخاع ، لديه منزل أنيق ، فى مدينة (سانتا دومنيكا) ، ولكنه قلما يذهب إليه ، فهو شبه مقيم فى معمله ، الذى يعزله عن العالم كله ، والذى وضع فراشًا صغيرًا فى ركنه ، يأوى إليه ، عندما يرهقه التعب ..

لا يدخن ولا يشرب الخمر ، ولا يهتم كثيرًا بملبسه ، أو نوعية غذائه ، ولكن هناك أكثر من ثمانية عشر ابتكارًا ، مسجَّلة باسمه ، فى الولايات المتحدة وكندا ، عشرة منها يمتد تسجيلها إلى العالم أجمع ، مما يدر عليه الملايين سنويًّا ، وعلى الرغم من هذا ، فهو لا يمتلك سيارة واحدة ، ولم يحصل على إجازة ليوم واحد ، منذ أكثر من عشرة أعوام ..

فى ذلك اليوم ، كان يشعر بتوتر شديد ، وهو يجلس أمام الجنرال (جاكوب) ، رئيس وحدة الأبحاث العسكرية الأمريكية ، والذى يواصل زيارته فى إلحاح ، فى الآونة الأخيرة ..

« ماذا هذه المرة ؟! .. »

قالها الدكتور (رياض) فى ضجر ، جعل الجنرال (جاكوب) يجيب فى صرامة :

ـ نفس ما أتيت من أجله ، فى المرة السابقة .

زفر فى توتر ، ومال إلى الأمام ، يقول فى حدة :

ـ والإجابة هى نفسها أيضًا .. لن أعمل فى الأبحاث العسكرية ، حتى ولو عرضتم مليار دولار .

بدا الجنرال باردًا ، وهو يقول :

ـ وماذا عن مليارين ؟!

حدّق الدكتور (رياض) فى وجهه فى دهشة ، هاتفًا :

ـ ملياران ؟!

أضاف الجنرال :

ـ مع أحدث معمل كيميائى فى البلاد ، وكل ما ستطلبه سيجاب بإشارة واحدة من سبّابتك .

غمغم الدكتور (رياض) ، وهو يتراجع فى مقعده :

ـ هل أساوى كل هذا ؟!

فاجأه الجواب الصارم القاسى :

ـ كلا .

تراجع فى دهشة ، فى حين استدرك الجنرال :

ـ ولكن أبحاثك تساوى ما هو أكثر .

غمغم فى عصبية :

ـ أبحاثى كلها ليست عسكرية .. إنها لخدمة البشرية فحسب .

أشار الجنرال بيده فى حزم :

ـ كل الأبحاث يمكن استخدامها عسكريًّا .

تزايدت عصبيته :

ـ ما أعمل عليه ، هو عقار يزيد من قدرة الخلية البشرية على مقاومة المرض .

حرّك الجنرال سبّابته على المائدة الصغيرة التى تفصلهما ، وكأنه يدحرج شيئًا أمامه :

ــ بدفعة قليلة ، يمكن أن يتحوّل هذا ، إلى إنتاج الجندى الخارق .

فغر الدكتور (رياض) فاه ، وهو يغمغم :

ــ جندى خارق ؟!

رفع الجنرال سبّابته ، مضيفًا :

ــ جندى يمتلك خلايا فائقة متطوّرة ، يمكنها مقاومة العوامل الجوية ، والبيئية .. جندى يمكنه أن يتلقى الرصاصات فى صدره ، ويظل قادرًا على القتال والنزال .

ظل الدكتور (رياض) فاغر الفاه لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

ــ وهل تتوقّع منى أن أفعل هذا ؟!

أشار الجنرال بيده :

ــ أنت تقوم به بالفعل ، وكل ما تحتاجه هو دفعة قوية ، من جهة تملك أكبر قوة دفع فى العالم .

تراجع الدكتور (رياض) فى مقعده الخشبى ، وراح يحدق فى وجه الجنرال لحظات ، قبل أن يعتدل ، قائلا فى صرامة :

ــ آسف .

كرّر الجنرال ، فى دهشة مستنكرة :

ــ آسف ؟!

نهض الدكتور (رياض) فى حزم ، وهو يلوِّح بيده ، هاتفًا :

ـ لن أشارك فى هذا أبدًا .. لن أقدِّم المزيد من الدماء والضحايا ، لآلة الحرب المسعورة هذه .

صاح به الجنرال فى حدة صارمة :

ـ كشفك سيقلل الضحايا بين صفوفنا ، وسيحقن دماء الكثير من جنودنا .

صرخ الدكتور (رياض) فى ثورة :

ـ وسيريق أنهارًا من دماء الضحايا الآخرين .

نهض الجنرال فى صرامة قاسية :

ـ وماذا لو أخبرتك أنه أمر ؟!

صاح (رياض) :

ـ لست جنديًّا يعمل فى صفوفكم ، حتى أتلقى أوامركم .

شدَّ الجنرال قامته ، فى وقفة عسكرية صارمة ، وبدا شديد القسوة ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، أنت عدو .

غمغم (رياض) مذعورًا :

ـ عدو ؟!

شدَّ الجنرال قامته أكثر ، واكتسب صوته المزيد من القسوة :

ـ عدو للولايات المتحدة الأمريكية .

ثم مال نحوه ، على نحو أجبر الدكتور (رياض) على التراجع مع استطرادته :

ـ و(أمريكا) لا تتسامح مع أعدائها أبدًا .

جف حلق الدكتور (رياض) ، وهو يغمغم :

ـ هل ستعملون على تصفيتى ؟!

اعتدل الجنرال ، مجيبًا :

ـ كلا .

ثم عاد يميل نحوه فى حدة ، مستدركًا :

ـ سنجعلك تتمنى لو نفعل .

اختطف كابه ، واندفع نحو باب المعمل الكبير وهو يضيف فى قسوة شديدة ، زادت من شحوب الدكتور (رياض) وارتجافته :

ـ أنتظر جوابك يا دكتور (يوسف) .. بعد نصف ساعة فقط .

وعند الباب ، توقف ، ثم التفت إليه ، مضيفًا فى صرامة قاسية :

ـ وحتى أحصل عليه ، لن يدخل أحد أو يخرج من هذا المعمل ، وإذا كان جوابك بالإصرار على الرفض ، فسيدوم هذا ، حتى آخر حياتك .

ارتجف جسد الدكتور (رياض) كله فى شدة ، وامتقع كيانه كله ، مع ذلك التهديد المباشر من جنرال (جاكوب) ..

كان كيانه كله يرتجف ، حتى إنه انتفض فى قوة ، وأطلق شهقة مذعورة عنيفة ، عندما سمع صوتًا من ركن معمله ، يقول بالعربية :

ـ لا تخشاهم .

استدار بكل ذعره ، إلى مصدر الصوت ، وتراجع فى حركة حادة ، مع مرأى ذلك الرجل ، الذى يتجه نحوه ، من ركن المعمل ..

الرجل طويل القامة ، أبيض البشرة ، شديد الأناقة ، الذى راح يتقدَّم نحوه ، وهو يستطرد :

ـ لن يمكنهم أن يؤذوا حتى خنصرك .

تراجع الدكتور (رياض) أكثر ، وهو يهتف فى رعب :

ـ من أين أتيت ؟! .. هذا المعمل ليس له سوى باب واحد !!

أومأ الرجل برأسه ، قائلًا فى هدوء شديد :

ـ وسنخرج منه معًا .

هتف (رياض) فى رعب :

ـ أنت منهم ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وابتسم ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ـ كلا .. منك أنت .

قبل حتى أن تمضى نصف الساعة ، اندفع الجنرال (جاكوب) إلى داخل المعمل ، وهو يقول بكل قسوة وصرامة :

ـ جوابك يا دكتور ؟

بتر عبارته دفعة واحدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وعلى الرغم من خلفيته العسكرية الطويلة ، انتفض جسده كله فى رعب ذاهل ..

ففى هذه المرة ، لم يختف الرجل وحده ..

ولا حتى الدكتور (رياض) ..

لقد اختفى المعمل الضخم ، بكل أجهزته وأدواته ..

تمامًا .



***

الفصل الثانى

*** القاهرة ٧ مارس ٢٠٢٥م :**

انعقد حاجبا الصحفى المعروف (إبراهيم عيسوى) ، وهو يطالع ذلك الخبر ، الذى أتى به أحد مراسلى جريدته ، ورفع عينيه إليه فى دهشة :

ـ أهذا الخبر حقيقى ، أم مجرَّد مزحة ؟!

أجابه المراسل فى حماس :

ـ حقيقى مائة فى المائة .. مصرى يحمل الجنسية الأمريكية ، أقام دعوى أمام القضاء المصرى ، يطالب فيها الحكومة المصرية بتعويض قدره خمسة مليارات دولار ، ثمنًا لمنطقة (مدينة نصر) كلها !!

أومأ المراسل برأسه :

ـ ويمتلك الوثائق ، التى تؤكِّد هذا أيضًا .

غمغم (إبراهيم) ، ودهشته لم تفارقه بعد :

ـ (مدينة نصر) كلها ؟!

أشار المراسل بيده :

ـ يؤكِّد أن جده قد ابتاعها من الدولة ، عام ١٩٤٥م ، ولديه وثائق رسمية بهذا .

هزَّ (إبراهيم) رأسه :

ـ من يمكن أن يصدِّق هذا !!

هتف المراسل فى حماس :

ـ إنه خبر الموسم .

ثم تحوَّل الحماس إلى تساؤل ، وهو يميل نحو (إبراهيم) :

ـ ولكن هل سيقبل القضاء المصرى بالقضية ؟!

فكَّر (إبراهيم) قليلا ، ثم هزَّ رأسه فى بطء :

ـ لست أعتقد هذا .

فاجأهما معًا صوت هادئ من ناحية باب الحجرة ، يقول فى ثقة :

ـ ليس أمامهم سوى هذا .

التفت الاثنان فى دهشة إلى مصدر الصوت ، وتضاعفت دهشتهما ، مع مرأى ذلك الرجل طويل القامة ، أبيض البشرة ، أنيق الملبس ، الذى يقف عند باب الحجرة ، مستطردًا :

ـ لو لم يفعلوا ، سألجأ إلى تحكيم اقتصادى دولى ، وعندئذ سأطالب بتعويض إضافى أيضًا .

هتف به (إبراهيم) :

ـ من أنت ؟! .. وكيف دخلت إلى هنا ، متجاوزًا السكرتارية ؟!

تجاهل الرجل السؤالين تمامًا ، وهو يتجه نحو مكتب (إبراهيم) ، ويضع أمامه صورة مستنسخة ، من أصل قديم :

ـ تصوَّرت أن حس الصحفى لديك ، سيسعده الفوز بسبق كهذا .

حدَّق (إبراهيم) فى الورقة ، مغمغمًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه بكل هدوء :

ـ صورة من العقد ، الذى ابتاع به جدى تلك المساحة من الأرض .

جرت عينا (إبراهيم) على صورة العقد فى سرعة ، قبل أن يرفع عينيه إلى الرجل ، قائلًا :

ـ ألف جنيه ؟! .. جدك ابتاع (مدينة نصر) بألف جنيه ؟!

اعتدل الرجل ، مجيبًا فى حزم :

ـ كانت عندئذ مجرَّد صحراء .

غمغم المراسل :

ـ جدك دفع ألف جنيه ، وأنت تطالب بخمسة مليارات جنيه ؟!

أجابه فى هدوء ، أقرب إلى البرود :

ـ وربما تزيد إلى الضعف ، لو لجأت إلى التحكيم الدولى .

تبادل المراسل نظرة مع (إبراهيم) ، الذى سأل الرجل ، فى اهتمام حقيقى :

ـ هل يمكننا أن نلتقط صورة لك ، نرفقها بصورة العقد ، على موقع الجريدة ؟

بدا الرجل شديد الصرامة ، وهو يجيب :

ـ كلا .

قال المراسل فى لهفة :

ـ ولكن هذا سوف ..

بتر عبارته فجأة عندما استدار الرجل دون كلمة إضافية ، وغادر المكتب ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظلَّ الاثنان صامتين فى دهشة ، قبل أن يغمغم المراسل :

ـ لم يخبرنا حتى عن اسمه .

نهض (إبراهيم) فى غضب ، واندفع نحو الباب :

ـ أريد أن أعلم كيف سمحت له السكرتيرة بالدخول ؟!

لم يكد يلقى نظرة على سكرتيرته ، حتى تحوَّل غضبه كله إلى دهشة .. كانت تجلس فى نفس الوضع ، الذى اعتاده منها ، ولكنها شاردة جامدة ، كما لو أنها تغط فى نوم عميق !!

وعندما ناداها ، انتفض جسدها كله ، وكأنها تفيق من حلم بالفعل ، والتفتت إليه بنظرة مذعورة ، جعلته يسألها فى قلق :

ـ ماذا بك ؟!

حدَّقت فيه فى دهشة مذعورة ، وكأن وجوده قد فاجأها ، ثم لهثت وهى تغمغم :

ـ لست أدرى .. فقد شعرت بـ .. بـ ..

قال يعاونها على المواصلة :

ـ بماذا ؟!

لهثت مرة أخرى ، وهى تهزُّ رأسها فى قوة ، وكأنها تحاول الاستيقاظ :

ـ لست أدرى؟! .. لا يمكننى وصف هذا !!

استعاد غضبه ، وهو يهتف :

ـ كنت نائمة حتمًا ، ولهذا استطاع ذلك الرجل الدخول .

سألته فى دهشة :

ـ أى رجل ؟!

وانعقد حاجباه فى شدة ..

فعلى الرغم من غرابة سؤالها ، إلا أنه طرحه على نفسه :

أى رجل هذا ؟!

أى رجل ؟! ..

* * *

*** القاهرة أكتوبر ٢٠١٨م :**

وضعت زوجة الدكتور (طارق) فنجان قهوة أمامه ، وهو غارق فى مطالعة مراجعه ، وغمغمت فى قلق :

ـ هذا خامس فنجان قهوة!! .. كيف تتوقَّع أن يغمض لك جفن ؟!

تنهَّد ، وهو يرفع عينيه إليها :

ـ اجلسى يا (سلمى) .

غمغمت فى دهشة :

ـ أجلس !!

أومأ برأسه إيجابًا :

ـ أنت خريجة علوم مثلى .

جلست فى حيرة :

ـ وهل لهذا شأن بجلوسى ؟!

غمغم ، وكأنه لم يسمع سؤالها :

ـ كنت من أنجب تلامذتى فى الفيزياء .

ابتسمت :

ـ عندما التقينا أوَّل مرة ، كنت المشرف على رسالة الماجستير الخاصة بى .

مرة أخرى ، بدا وكأنه لم يسمعها ، وهو يسألها :

ـ هل تذكرين نظرية المجال الموحَّد ؟!

بدت الدهشة على وجهها ؛ لأنها لم تكن تتوقَّع السؤال ، فغمغمت :

ـ المجال الموَّحد ؟!

سألها فى اهتمام :

ـ هل تذكرينها ؟!

غمغمت ، ودهشتها تتزايد :

ـ بالطبع .. لقد وضع أسسها (ألبرت أينشتاين) ، فى محاولة منه لدمج نظريته النسبية العامة ، مع الكهرومغناطيسية .

أكمل ، وكأنه لم يكن ينتظر إجابتها :

ـ لخلق مجال موحَّد ، له صيغة واحدة ، تنطبق على مجموع طاقة كل القوى .

اعتدلت ، وقد شاب حيرتها بعض الاهتمام :

ـ ولكن تلك النظرية لم تثبت أبدًا ، أو لم توضع لها صيغة مقبولة ، حتى لحظتنا هذه(*) .

رتت على مراجعه ، قائلًا فى شبه شرود ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ تلك المراجع تزعم ، أنه فى عام ١٩٤٣م ، حاولوا استخدام المجال الموحَّد ، فى إخفاء سفينة حربية أمريكية ، هى (يو إس إس ألدريدج) ، وتقول إن الإخفاء حدث ، ولكن بحارة السفينة أصيبوا بهلوسات ، ومتاعب عقلية عديدة (**) ..

(*) حقيقة علمية .

(**) تتحدث بعض المراجع العلمية عن التجربة ، باعتبارها حقيقية ، فى حين تنكرها مراجع أخرى تمامًا .

تطلَّعت إليه (سلمى) لحظات فى قلق ، قبل أن تربِّت على كتفه ، قائلة :

ـ (طارق) .. أأنت غارق وسط كتبك ، منذ شهر تقريبًا ، من أجل هذا ؟

حملت شفتاه ابتسامة شاحبة ، وهو يومئ برأسه فى بطء ، فغمغمت منزعجة :

ـ أأنت بخير ؟!

زفر فى حرارة ، وأغلق المرجع الذى بين يديه ، والتقط فنجان القهوة ، قائلًا :

ـ أليس هذا مجالى ؟!

أمسكت يده فى حزم :

ـ لا .. لن تشربها .

تطلّع إليها فى دهشة ، فسحبت الفنجان من يده :

ـ إنك تحتاج إلى النوم .

حملت شفتاه ابتسامة شاحبة ، وهو يصحبها إلى حجرة النوم ..

ولكنه لم ينم ..

لقد ظلّ مفتوح العينين طول الليل ، وذهنه يدور كله حول أمر واحد ..

نظرية المجال الموحد ..

* * *

*** القاهرة أغسطس ٢٠١٤م :**

فـى صعوبـة ، كتـم وزيـر الآثـار المصرى ابتسامته ، وهو يتطلَّع إلى الدكتور (طه) ، قائلًا :

ـ إذن فقد اختفى ، دون أن يترك خلفه أى أثر ؟!

غمغم الدكتور (طه) فى توتر :

ـ هذا ما حدث .

تطلَّع إليه الوزير لحظات ، قبل أن يميل نحوه :

ـ دكتور (طه) .. هل تحتاج إلى إجازة ؟

ارتفع حاجبا (طه) فى دهشة :

ـ إجازة ؟! .. لماذا ؟!

تراجع الوزير :

ـ أنت تعمل تحت حر الصيف ، منذ أكثر من شهرين ، لا بد وأنك تحتاج إلى بعض الراحة .

انعقد حاجبا الدكتور (طه) فى غضب ، وهو يقول :

ـ لـم أكـن واهمًا يـا سيـادة الوزيـر .. مساعـدى (مسعـد) أيضًا رأى ذلـك الرجل ، وتحدَّث إليه .

هزَّ الوزير كتفيه ، وهو يقول :

ـ ولكن أحدًا غيركما لم يره .

غمغم (طه) فى توتر :

ـ ولست أدرى كيف ؟!

تنهَّد الوزير ، وهو يتطلَّع إليه ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، ثم قال :

ـ دكتور (طه) .. لا أحد يمكنه دخول الموقع ، دون تصريح من الوزارة ، وآخر من الأمن ، فما بالك بالخروج منه ، دون أن يراه أحد ؟!

وضع (طه) يده على جبهته ، وكأنما يرهقه الأمر كله ، وغمغم دون أن يرفع عينيه إلى الوزير :

ـ لقد قرأ صور السونار الأرضى ، دون أن ينظر إليها ، وكأنه ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، فعاد الوزير يميل نحوه :

ـ وكأنه ماذا ؟!

زفر (طه) قبل أن يكمل :

ـ وكأنه يحفظها عن ظهر قلب .

تراجع الوزير بحركة حادة :

ـ يحفظها ؟!

ثم اكتسب صوته صرامة ، مع استطرادته :

ـ كلانا يعلم أنها أوَّل مرة ، نكشف فيها هذا .

أجابه فى عصبية :

ـ ولكنه يحفظها .

تطلَّع إليه الوزير لحظات طويلة ، وهو يعتدل مكررًا :

ـ سأمنحك أسبوعًا إجازة يا دكتور (طه) .

قال معترضًا :

ـ ولكننى ...

قاطعه الوزير فى صرامة :

ـ بدءًا من الآن .

عندما غادر (طه) مكتب الوزير ، كان كيانه كله يشعر بالغضب ..

وربما من نفسه ..

إنه عالم آثار ، فكيف يهيمن غموض ذلك الرجل على ذهنه ، وهو على وشك كشف أحد أهم ألغاز (أبى الهول) ؟! ..

حتى وصل إلى سيارته ، لم تفارق تلك الفكرة ذهنه ..

ولكن ، وقبل أن يدير محركها ، توقف يفكّر ..

ثم التقط تلك البطاقة الذهبية من جيبه ..

وبرزت فى ذهنه فكرة جديدة ..

ما دام اللغز كله يدور حول ذلك الأبيض الأنيق الطويل ، فلماذا لا يخوض المواجهة مباشرة ، ويذهب للقائه ؟! ..

أدار محرّك السيارة ، واتجه بها مباشرة إلى ذلك الفندق ..

إلى حيث يلتقى بذلك الرجل ..

الرجل الغامض ..

جدًا ..

* * *

* نيويورك فبراير ١٩٧٨م :

ابتسم سمسار البورصة فى (وول ستريت) ، شارع المال والاقتصاد ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو يطالع طلب الشراء ، الذى قدمه إليه العميل الجديد ، ورفع عينيه إليه ، متسائلًا :

ـ (أبـل) ؟! .. إنها مجرد شركة صغيرة ، كثيرون لا يتوقعـون لها النجاح ، فكيف تغامر ، بشراء كل هذا العدد من أسهمها ؟!

أجابه الرجل فى هدوء بارد :

ـ لدى رؤية .

هزَّ السمسار رأسه ، وقال :

ـ ما رأيك فى (زيروكس) ؟! .. أسهمها مضمونة أكثر .

غمغم الرجل :

ـ أعشق المغامرة .

تراجع السمسار ، وهو يهز كتفيه :

ـ ليس بأموالك .

بدا الرجل صارمًا ، وهو يقول :

ـ أنت قلتها .

تساءل السمسار فى حيرة :

ـ قلت ماذا ؟!

مال نحوه فى حدة صارمة :

ـ إنها أموالى ، وأنا حر فيما أنفقها .

امتقع وجه السمسار ، وهو يغمغم فى اضطراب :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكننى كنت أحاول إبداء النصح فحسب .

أجابه بنفس الصرامة :

ـ ولقد أبديته .

ارتبك السمسار أكثر :

ـ فليكن .. كم سهمًا ترغب فى شرائه يا سيدى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ كل المتاح .

رفع الرجل عينيه إليه بكل الدهشة ، ثم عاد بهما إلى أوراقه فى توتر :

ـ كما تشاء يا سيدى .. كما تشاء .

لم يستطع استيعاب هذا الأمر أبدًا ، حتى إنه ما إن غادره الرجل ، حتى التفت إلى زميل له ، قائلًا فى توتر :

ـ ذلك الرجل يعرف شيئًا لا نعرفه .

وافقه زميله بإيماءة من رأسه :

ـ كنت أشعر بهذا .

نهض السمسار ، يتطلّع عبر النافذة ، لإلقاء نظرة على ذلك الرجل ، وهو يغادر المبنى والشمس على وشك المغيب ..

رآه يغادر المبنى ، فى خطوات واسعة واثقة ، ثم اتجه مباشرة إلى كابينة هاتف قديمة ، ودخلها ، وأغلق بابها خلفه ..

ثم ، وبدون مقدمات ، ظهر وميض عجيب ، له لون أزرق باهت ، داخل كابينة الهاتف ..

وميض استغرق ثانية واحدة ، ثم تلاشى على الفور ..
ولم يغادر الرجل كابينة الهاتف ..
مضى دقائق طويلة ، دون أن يغادرها ..

وفى حيرة ، تساءل السمسار : ماذا يمكن أن يفعل ذلك الرجل هناك ، طوال هذ الوقت ؟!

ثم مرَّت حافلة عامة ، وأضاءت مصابيحها تلك الكابينة القديمة ..
وتراجع السمسار فى دهشة عارمة ..
فعلى ضوء الحافلة ، بدا من الواضح أن كابينة الهاتف خالية .. تمامًا ..

* * *

*** مكان ما .. وزمان ما :**

انتفض جسد الدكتور (رياض) ، وهو يستعيد وعيه ، وينهض جالسًا على طرف فراش معمله ، فى حركة حادة ..
وفى توتر ، تطلَّع إلى كل ما حوله ..
إلى معمله ..
معمله الذى اعتاد رؤيته ، منذ سنوات طوال ..
كل شىء فى موضعه كما اعتاده ..
كل شىء ..
وعلى الرغم من هذا ، فإنه يشعر أن هناك أمرًا مختلفًا ..
لم يستطع ذهنه ، الذى لم يستيقظ بعد استيعابه ..

كان يشعر بإرهاق شديد ، دفعه للعودة إلى الاستلقاء على الفراش الصغير وإغماض عينيه ، محاولًا استعادة ما حدث ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع ..

ضباب كثيف كان يحيط بعقله ، ويحول بينه وبين استعادة ما حدث ..

أصابه هذا بتوتر شديد ، جعله يغمغم :

ـ كيف ؟! .. كيف ؟!

« أنا منك .. » ..

قفزت الكلمة فجأة إلى ذهنه ، وانقشع معها بعض الضباب ..

استعاد فجأة مرأى ذلك الطويل الأبيض الأنيق ، الذى ظهر فجأة فى معمله ..

كان هذا آخر ما سمعه منه ..

ثم كان ذلك الضوء ..

الضوء المبهر ، الذى أغشى بصره ..

والذى فعل به ما فعله ..

لقد كان واثقًا من أن قدميه ثابتتان على الأرض ، وعلى الرغم من هذا ، فقد شعر أن جسده ..

كله يدور ..

ويدور ..

ويدور ..
لحظتها دار كيانه كله حول نفسه ..
وفقد للحظات شعوره بالزمان والمكان ..
لم يعد يدرى ، أيدور حول نفسه منذ دقائق ؟! ..
أم ساعات ؟! ..
أم قرون !!!
ولقد حاول أن يقول شيئًا ..
أى شىء ..
ولكنه لم يستطع ..
أبدًا لم يستطع ..
ثم فجأة ، تحوّل الضوء الساطع إلى ظلام دامس ..
ثم استيقظ ..
فتح عينيه فى هذه اللحظة ، محدّقًا فى السقف ، ومتسائلًا :
ـ أهذا حلم ؟!
استعاد مواجهته الأخيرة ، مع الجنرال (جاكوب) ، فتابع متوترًا :
ـ أم هى وسيلتهم لتعذيبى ؟!
جال ذلك الخاطر فى ذهنه ، وتغلغل فى أعماقه ، قبل أن ينتبه إلى أمر آخر ..
هذا السقف ..
إنه ليس سقف معمله المعتاد ..
انعقد حاجباه فى شدة ، وتوتّرت كل خلية فى جسده ..
كيف هذا ؟!

كل شىء فى معمله ، كما يذكره تمامًا ..

ولكن السقف يختلف ..

سقف معمله المعتاد ، فيه خمسة مصابيح قوية ..

أما هذا السقف ، فكله مضاء تقريبًا ..

كيف فعلوا هذا ؟! ..

كيف ؟! ..

اعتدل جالسًا مرة أخرى ، يدير عينيه فى معمله ..

كل شىء كما هو ..

فيما عدا أمرًا آخر ..

النافذة ، المجاورة للمنضدة ، التى يضع عليها اللاب توب الخاص به ..

لم تكن هناك أبدًا نافذة هناك ! ..

أين هو ؟! ..

إلى أين نقلوه ، مع كل شىء ؟! ..

وكيف ؟! ..

تردَّد لحظات ، ثم نهض ، واتجه فى خطوات متوترة متردِّدة ، نحو تلك النافذة ..

وعندما بلغها ، اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فما رآه ، عبر تلك النافذة ، كان مذهلًا ..

بكل المقاييس .

***



الفصل الثالث

*** الجيزة سبتمبر ٢٠١٤م :**

طويلًا ، تطلَّع الدكتور (طه) إلى ذلك الرجل ، الذى بدا هادئًا ، يبتسم ابتسامة باردة ، ويتطلَّع إليه بدوره ، وكأنه ينتظر منه أن يبدأ بالكلام ..

ولكنه لم يبدأ ..

لقد ظلَّ صامتًا ، يتطلَّع إلى ذلك الرجل ، وكأنه لا يجد فى ذهنه ما يقوله ، على الرغم من عشرات الأسئلة ، التى يذخر بها كيانه ..

ولما طال صمته ، ألقى الرجل نظرة على ساعته ، التى بدت عجيبة التكوين ، ثم قال فى هدوء ، لا يخلو من لمحة صارمة :

ـ لن أبقى هنا طويلًا يا دكتور (طه) .

أجابه (طه) فى توتر :

ـ أنت من طلب اللقاء .

بدت ابتسامة الرجل شديدة الشحوب ، وهو يتمتم :

ـ أنت على حق .

بحركة أنيقة سريعة ، أخرج من جيبه خارطة ، وضعها أمامه ، وهو يقول :

ـ هذه منطقة أبحاثكم .. أليس كذلك ؟!

حدَّق (طه) فى الخارطة لحظات ، ثم رفع عينيه إليه :

ـ من أين حصلت عليها ؟!

تجاهل الرجل سؤاله تمامًا، وهو يخرج ورقة أخرى شفافة، فى نفس حجم الخارطة، ووضعها فوقها، فبدت عليها ظلال باهتة، وهو يقول :

ـ وهذه صورة السونار الأرضى، كما حصلتم عليها .

تفجرت أسئلة جديدة، فى ذهن الدكتور (طه)، وهو يمد يده؛ ليتحسس تلك الورقة الشفافة، مغمغمًا فى توتر :

ـ من أين تحصل على كل هذا ؟!

لم يكد يلمس الورقة، حتى تراجع فى حركة عصبية، ورفع يده عنها فى شىء من الذعر !..

فعلى الرغم من شكلها العادى، لم تكن مجرد ورقة شفافة عادية ..

لقد شعر، وهو يلمسها، أن هناك تيارًا كهربيًا ضعيفًا، قد سرى منها إلى أصابعه ..

وفى عصبية، هتف :

ـ ما هذا ؟

رفع ذلك الرجل عينيه إليه فى صرامة :

ـ تلقى الكثير من الأسئلة .

هتف به :

ـ وأنت لديك الكثير من العجائب !!

تطلع الرجل إلى ساعته العجيبة مرة أخرى، وبدا عصبيًا إلى حد ما، وهو يقول :

ـ هل سنضيع الوقت فى هذا، أم أنك تود الإفادة من اللقاء ؟!

تراجع (طه) فى مقعده ، والتوتر يملأ كل كيانه ، مغمغمًا ، وحلقه يجف ، على نحو عجيب :

ـ من أنت ؟!

مرة أخرى ، تجاهل الرجل الإجابة ، وهو يشير إلى نقطة على مزيج الخارطة والنسخة الشفَّافة ، وقال فى صرامة :

ـ ابدأ البحث هنا .

تساءل الدكتور (طه) ، بكل فضول الباحث :

ـ البحث عن ماذا ؟!

ألقى الرجل نظرة ثالثة على ساعته العجيبة ، وهو ينهض ، قائلًا :

ـ عن الممر .

تساءل رجل الآثار ، بكل الشغف :

ـ أى ممر ؟! .

لم يجبه الرجل ، هذه المرة أيضًا واندفع مبتعدًا عنه ، فهتف به :

ـ إلى أين ؟!

ولكن الرجل واصل ابتعاده ، فى خطوات طويلة واسعة ، وانعقد حاجبا الدكتور (طه) فى شدة ، وهو يتابعه ..

فلوهلة ، خيِّل إليه أن كفى الرجل قد ومضا ، بضوء أزرق باهت ، ظهر واختفى ، خلال ثانية واحدة ، قبل أن يختفى الرجل ، خارج بهو الفندق الفاخر ، المطل على نيل (القاهرة) ! ..

ولثوانٍ ، تجمَّد الدكتور (طه) فى مكانه ، وهو مبهور بما حدث ..

وراحت كل الأسئلة ، التى لم يطرحها بعد ، تتدفق على ذهنه ..

لماذا يبدو هذا الرجل غريبًا ؟! ..

من أين يأتى بكل هذه المعلومات ؟!

وما هذا الضوء الأزرق الباهت ، الذى ومضت به كفاه ؟!

ما ماهيته ؟! ..

وماذا يعنيه ؟! ..

مع تساؤلاته ، خفض عينيه إلى تلك الورقة الشفافة العجيبة ، التى تركها ذلك الغامض خلفه ..

الورقة التى تبدو كالورقة ..

ولكنها حتمًا ليست كذلك ..

بكل تأكيد ..

***

*** كاليفورنيا يناير ٢٠١٩م :**

تراجع الجنرال (رون) فى مقعده ، وهو يتطلّع بنظرة قاسية صارمة إلى الجنرال (جاكوب) ، قبل أن يقول فى بطء حاد :

ـ اختفى ؟!

لوَّح (جاكوب) بذراعيه فى عصبية شديدة ، وهو يقول :

ـ ليس وحده .. معمله كله اختفى .. تلاشى .. ضاع !!

قال الجنرال (رون) بنفس البطء :

ـ هكذا ؟!

ثم اعتدل بحركة حادة ، وهو يهتف فى حدة :

ـ أى قول أخرق هذا يا جنرال ؟! .. لسنا فى واحدة من قصص (ليالٍ عربية)(*) .. نحن فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين ، حيث لا وجود للجن والعفاريت ، وبالتأكيد ليس مصباح (علاء الدين) .

هزَّ الجنرال (جاكوب) رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ أقسم بقبور آبائى وأجدادى ، إن هذا ما حدث .

أطلق الجنرال (رون) زفرة قوية ، قبل أن يسأله بكل صرامة :

ـ وكيف سنورد هذا فى تقريرنا ؟!

(*) يطلق الغرب على كتاب (ألف ليلة وليلة) ، اسم (ليالٍ عربية) (Arabian Nights) .

عاد (جاكوب) يهز رأسه :

– لست أدرى ، ولكن هذا ما حدث .. تركته لنصف الساعة إلا قليلا ، وأحطت معمله برجالى ، وعندما عدت ، كان المكان خاليًا تمامًا !

ضرب الجنرال (رون) سطح مكتبه براحته ، وهو يقول فى حدة :

– وهل يمكن أن يشهد رجالك بهذا ؟!

أجابه فى سرعة :

– بالتأكيد .

صمت الجنرال (رون) طويلًا هذه المرة ، وهو يتطلَّع إليه بنظرة عجيبة ، قبل أن يلتقط سمَّاعة هاتف خاص ، أحمر اللون ، وهو يقول فى مزيج عجيب من الصرامة والعصبية :

– فلتر ماذا ستقول (واشنطن) فى هذا ؟ !

ومطَّ شفتيه فى حدة ، وهو يستطرد :

– بخلاف إحالة كلينا إلى المستشفى النفسى .

تراجع الجنرال (جاكوب) فى مقعده ، وامتقع وجهه ، وتوتره يتضاعف ..

ألف مرة ..

***

*** القاهرة مارس ٢٠٢٥م :**

« هذا صحيح يا أستاذ (إبراهيم) .. »

نطـق وزيـر العـدل العبـارة ، دون أيـة انفعـالات شخصيـة ، فتراجع (إبراهيم عيسوى) فى مقعده ، وهو يقول فى دهشة :

ـ ولماذا لم يظهر ذلك العقد ، من عام ١٩٤٥م ، حتى الآن ؟!

قلَّب وزير العدل كفيه ، وهو يجيب :

ـ خطأ إدارى ، ولكنه لا يسقط حق الرجل .

هتف (إبراهيم) :

ـ خطأ إدارى يا سيادة الوزير .. خمسة مليارات دولار ، تعتبرونها مجرَّد نتيجة خطأ إدارى ؟!

صمت الوزير لحظات ، ثم قال :

ـ النائب العام أمر بإجراء تحقيق فى هذا الشأن ، وهناك من يبدون دهشتهم البالغة ، ويؤكدون أن ذلك العقد لم يكن له وجود فى السجلات ، عندما تسلموها لأوَّل مرة .

اعتدل (إبراهيم) فى لهفة :

ـ أيعنى هذا أنه عقد زائف ؟!

هزَّ الوزير رأسه ، مجيبًا :

ـ العجيب أنه عقد سليم مائة فى المائة ، ولقد تم العثور على أصله ، فى سجل المحفوظات فى القلعة .

تساءل (إبراهيم) فى حيرة :
ـ كيف يؤكِّد الجميع عدم وجوده فى السابق إذن ؟!
صمت الوزير لحظة أخرى ، ثم أجاب :
ـ هذا ما يجرى النائب العام تحقيقه بشأنه .
هزَّ (إبراهيم) رأسه متفهمًا ، قبل أن يتساءل :
ـ ولكن هل يسمح القانون المصرى ، بدفع مثل هذا التعويض ؟!
زفر الوزير ، وقال :
ـ هذا أمر يتجاوز حدود البنود القانونية .
سأله :
ـ لماذا إذن ؟!
مال الوزير نحوه ، قائلًا بلهجة تشف عن أهمية الأمر :
ـ إما أن نتخذ إجراءً استثنائيًا ، أو سيلجأ الرجل إلى تحكيم دولى .
غمغم (إبراهيم) :
ـ وسيحصل على مليار إضافى .
تراجع الوزير ، مغمغمًا :
ـ على الأقل .
كصحفى قديم مخضرم ، لم يستطع (إبراهيم) الاكتفاء بهذا الجواب ..
لا يمكن أن يكون هذا كل شىء ..
هناك أمر غامض خلف كل ما يحدث ..
أمر لا يمكن لصحفى محترف أن يتجاهله ..
أبدًا ..

* * *

*** القاهرة مارس ٢٠٢١م :**

هزَّ الدكتور (محمد على) ـ العالم الفيزيائى المعروف ـ رأسه فى استمتاع ، وهو يطالع بحث الدكتور (طارق) ، قبل أن يرفع عينيه إليه ، قائلًا بابتسامة عريضة :

ـ أظننا سنهنئك بجائزة (نوبل) قريبًا يا دكتور (طارق) .. هذا البحث مذهل بحق .

غمغم الدكتور (طارق) :

ـ لقد استغرقت ثلاث سنوات فى دراسة مكثفة ؛ للتوصل إليه يا دكتور (محمد) .

لوَّح الدكتور (محمد) بيده :

ـ ولكن من أين أتتك هذه الفكرة العبقرية ؟! .. آلاف حاولوا وضع معادلات للمجال الموحَّد ، ولكن أحدهم لم يتوصَّل إلى ما توصلت إليه .

تنهَّد (طارق) ، وهو يتراجع فى مقعده :

ـ كثيرون ألهمونى بالأمر .

وافقه الدكتور (محمد) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

ـ لقد قرأت ما كتبته عن (تشيرنوبروف) ، وآلته الزمنية .

أشار (طارق) بيده :

ـ (تشيرنوبروف) اعتمد على الطاقة الكهرومغناطيسية فى عمل آلته الزمنية .

أجابه الدكتور (محمد) فى سرعة :

ـ وحقّق بعض النتائج المحدودة .

هزّ (طارق) كتفيه :

ـ محدودة أكثر مما ينبغى .. لقد راجعتها كلها ، وتبينت أنها تعتمد كلها على نقل مواد صلبة أحادية كقطع النقد إلى مسافة زمنية محدودة ، لم تزد على الدقيقتين ، على أقصى تقدير .

قال الدكتور (محمد) فى شغف :

ـ ولهذا مزجت أبحاثه بالنظرية النسبية العامة .

أومأ (طارق) برأسه :

ـ أدخلت كل عوامل الطاقة الأخرى فى المعادلات .. الجاذبية ، وميكانيكا الكم ، وحتى تأثيرات الأشعة الكونية .

ابتسم الدكتور (محمد) :

ـ قرأت هذا .

اعتدل الدكتور (طارق) ، مكملًا :

ـ وبهذا ، يمكن أن تكون لدينا آلة زمن حقيقية .

ربّت الدكتور (محمد) على البحث :

ـ نظريًا .

عاد الدكتور (طارق) يتراجع فى مقعده :

ـ هذا ما أتيتك من أجله يا دكتور (محمد) .

تطلّع إليه الدكتور (محمد) لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ تريد تحويل النظرية ، إلى تطبيق عملى .

هتف (طارق) فى لهفة :

ـ بالضبط .

تنهَّد الدكتور (محمد) ، وهزَّ رأسه :

ـ هل تعلم كم يمكن أن يتكلَّف هذا ؟!

تنهَّد (طارق) بدوره ، وهو يومئ برأسه :

ـ الكثير .

قال الدكتور (محمد) فى بطء :

ـ عبارة غير صحيحة .

ثم استدرك فى حزم :

ـ إنه الكثير .. جدًّا .

قلَّب الدكتور (طارق) كفيه ، دلالة على قلة الحيلة ، وأطلق من أعمق أعماق صدره تنهيدة حارة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فهزَّ الدكتور (محمد) رأسه مغمغمًا :

ـ يمكننا أن نحاول على الأقل .

رفع إليه (طارق) عينين بائستين مغمغمًا :

ـ وهل ...

لم يتم عبارته ، ولكن المعنى بدا واضحًا ، فابتسم الدكتور (محمد) ابتسامة باهتة ، وقلَّب كفيه بدوره ، فنهض (طارق) يهم بالانصراف :

ـ كان علىَّ أن أحاول .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ حسنًا فعلت .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ بالمناسبة .. هل طلبت من الوزارة أن ...

قاطعه (طارق) بإشارة من يده :

ـ بالطبع .

سأله فى شغف :

ـ وماذا ؟!

ابتسم (طارق) ابتسامة شاحبة :

ـ سخروا من الفكرة .

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه :

ـ هذا طبيعى .. آلة زمن ؟! .. عقولهم لن تبلغ هذه المرحلة .

لوَّح (طارق) بيده :

ـ أمر طبيعى .. يبدو أننى سأكتفى بتقديمها كنظرية فحسب .

تنهَّد مرة أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ أشكرك كثيرًا يا دكتور (محمد) ؛ لاستماعك إلىَّ .

لوَّح بيده ، وهو يغادر المكان ، فصمت الدكتور (محمد) بعده لحظات ، وهو يحك ذقنه مفكرًا ، ثم جذب درج مكتبه ، والتقط منه بطاقة ذهبية ، راح يتطلَّع إليها ، وذهنه يفكُر فى احتمال جديد ..

وصدفة عجيبة ..

للغاية ..

***

*** واشنطن يناير ٢٠١٩م :**

« كلام فارغ »

قالها المستشار العلمى للرئيس الأمريكى ، وهو يطالع ذلك التقرير العاجل الذى أرسله الجنرال (رون) من (كاليفورنيا) ، وألقى الورقة ، التى تحمل فى ركنها عبارة (سرى للغاية) ، على سطح مكتب الرئيس ، وهو يستطرد :

ـ لا يمكن حتى لطفل ، أن يصدق هذا الهراء !

قال الرئيس الأمريكى فى هدوء :

ـ بغض النظر عن غرابة الأمر ، فالكل يؤكدونه .

لوَّح المستشار بذراعه كلها ، وهو يقول :

ـ مؤامرة .. جهة ما اختطفت الدكتور (يوسف) هذا ، وجنودك يحاولون التملص من المسئولية يا سيادة الرئيس .

واصل الرئيس الحفاظ على هدوئه ، وهو يقول :

ـ وماذا لو أنه سلاح جديد ؟!

انعقد حاجبا المستشار :

ـ سلاح جديد ؟! .. سلاح يمكنه إخفاء قاعة كاملة ، بكل ما فيها ومن فيها !!

هزَّ الرئيس كتفيه ، وقلب كفيه ، على نحو ازداد معه انعقاد حاجبى مستشاره :

ـ لا يمكن الجزم بوجود شىء كهذا .

أجابه الرئيس فى حزم :

ـ ولا يمكن نفيه أيضًا .

غرق المستشار فى تفكير شديد العمق ، وهو يكرِّر :

ـ لا يمكن نفيه .

ثم عاد إلى صمته وتفكيره لحظات أخرى ، قبل أن يقول :

ـ على الرغم من أنه احتمال بعيد .

تراجع الرئيس فى مقعده ، واكتسب صوته لهجة صارمة :

ـ لهذا فقد أمرت بتكليف فريق علمى ، على أرفع مستوى ، بالسفر فورًا إلى (كاليفورنيا) ؛ لعمل كل ما يلزم ، مع كل الصلاحيات المتاحة ؛ لكشف هذا اللغز .

غمغم المستشار :

ـ فريق علمى ؟!

أشار إليه الرئيس فى حزم :

ـ أعد حقيبتك بسرعة ، فستكون على رأس الفريق ، وطائرتكم ستقلع بعد أقل من نصف الساعة من الآن .

ارتفع حاجبا المستشار العلمى فى دهشة ، ثم عادا ينعقدان فى توتر ..

فلو صح ما قرأه ، فهم فعلًا أمام لغز ..

لغز غامض وعميق ..

عميق جدًّا ..

***

* مكان ما .. وزمان ما :

ما هذا الذى يمتد أمامه ؟!

وإلى آفاق البصر !!! ..

فراغ ..

فراغ لا نهائى ..

أو هو ضباب ..

ضباب خفيف فى تكوينه ..

ولكنه كثيف فى انتشاره ..

أو هو مزيج من هذا وذاك ..

الفراغ ..

والضباب ..

ما هذا ؟! ..

ما هو ؟! ..

وأين هو الآن ؟! ..

« أسئلة عديدة ، تدور فى رأسك ، يا دكتور (رياض) .. »

انتفض فى شدة ، عندما سمع ذلك الصوت الهادئ من خلفه ، والتفت إلى صاحبه بحركة حادة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فيه ..

إنه نفس الرجل ..

طويل ، أبيض ، أنيق ، هادئ ..

وكما فعل ، عندما ظهر فى معمله من قبل ، كان يتقدَّم نحوه فى بطء ..
وبابتسامة هادئة ، ولكنها لا تثير فى نفسك سوى القلق والخوف ..
وبذلك الهدوء ، استطرد :

ـ عالم مثلك ، لا بد وأن يشعر بحيرة شديدة ، وبفضول أشد .

تراجع الدكتور (رياض) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ من أنت ؟!

أجابه الرجل ، وهو يواصل تقدُّمه نحوه فى هدوء :

ـ بشرى مثلك .. لا تقلق .

غمغم (رياض) ، وكأنما لم يكن يتوقَّع الجواب :

ـ بشرى مثلى ؟!

تطلَّع إليه مرة أخرى ، وكأنما يتيقن من الجواب ، ثم سأله فى عصبية :

ـ أين نحن بالضبط ؟!

توقَّف الرجل ، وأشار إلى ما حوله :

ـ معملك كله هنا ، لا ينقصه شىء .

كرَّر (رياض) فى عناد :

ـ أين نحن ؟!

قال الرجل ، متجاهلًا السؤال :

ـ لم يعد هناك من يمكنه أن يجبرك على فعل ما لا تحب .

هتف الدكتور (رياض) فى حدة :

ـ أين نحن يا هذا ؟!

أجابه فى هدوء شديد :

ـ فى آخر مكان يمكن أن يصلوا فيه إليك .

صرخ الدكتور (رياض) :

ـ أين نحن ؟! .. أهذا سؤال عسير إلى هذا الحد ؟!

تطلّع إليه الرجل لحظات بنظرة ثاقبة ، ثم اتجه إلى النافذة ، وأشار عبرها فى صرامة :

ـ انظر إلى هذا .. إنه شىء لم تره فى حياتك مطلقًا ، ولست أظن أن بشريًا آخر رآه .

ارتجف جسده ، وهو يغمغم :

ـ بشرى ؟!

قال الرجل ، فى برود صارم :

ـ تريد أن تعرف ما هذا ؟!

جفّ حلقه فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد .

وعندما منحه الجواب ، انتفض كيان (رياض) كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ..

وبمنتهى العنف .

* * *



الفصل الرابع

* **موسكو شتاء ١٩٩٠م :**

تحرك العالم الفيزيائى الفذ (ألكسندر كورباكوف) ، فى خطوات سريعة ، فى شوارع (موسكو) ، التى غطتها الثلوج فى ذلك اليوم شديد البرودة ، وعلى الرغم من معطف الفراء الثقيل ، الذى يرتديه ، كان يشعر ببرودة مؤلمة فى أطرافه ، دفعته لحث السير أكثر وأكثر ، حتى بلغ منزله أخيرًا ، ففتح بوَّابته المعدنية ، وراح يصعد فى درجات السلم فى سرعة ، فى محاولة لبث بعض الدفء فى أوصاله ..

ولقد بذل جهدًا حقيقيًا ؛ ليضع مفتاحه فى ثقب الباب ، مع ارتجافة يده الشديدة ، وهو يغمغم :

ـ يا له من شتاء !! .. لست أظننا صادفنا مثله ، منذ عام ١٩٤٣م .

شعر بالارتياح ، عندما انفتح الباب أخيرًا ، ولكنه ما إن خطا إلى المنزل ، الذى يعيش فيه بمفرده ، منذ وفاة زوجته ، حتى تسمَّر فى مكانه ، ونسى لوهلة كل ما يتعلق بالبرد والارتجاف ..

فعلى عكس الطقس الخارجى ، كان المنزل دافئًا ..

والأدهى أن المدفأة كانت مشتعلة ، ونيرانها تضىء المكان ، وتنشر الدفء من حولها ..

وفى توتر شديد ، غمغم (كورباكوف) :

ـ مستحيل !! .. كانت مطفأة حين غادرت .

انتفض جسده كله ، مع صوت هادئ ، يقول بالإنجليزية :

ـ أنا أشعلتها .

التفت (كروباكوف) فى ذعر ، إلى صاحب الصوت ، الذى يجلس فى هدوء ، على مقعده الوثير ، فى ركن الصالة ..

لم يستطع رؤية سوى جزء يسير من ملامحه ، مع الضوء المنبعث من نيران المدفأة ، ومما زاده خوفًا ، على نحو جعله يهتف ، فى صوت مرتجف :

ـ من أنت ؟! .. وكيف دخلت إلى هنا ؟!

أجابه الرجل ، دون أن ينهض من مكانه :

ـ اطمئن .. هل يمكنك إغلاق الباب ، قبل أن يتسرَّب الدفء إلى الخارج ؟! .. إنها ليلة شديدة البرودة كما ترى .

تردَّد (كورباكوف) بضع لحظات ، إلا أنه فى النهاية ، كرَّر سؤاله :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

أجابه الرجل فى هدوء :

ـ وجدت سبيلا .

أشعل (كورباكوف) ضوء الصالة على الفور ، وشعر بارتجافة فى جسده ، وهو يحدق فى ذلك الرجل أبيض البشرة ، هادئ الملامح ، شديد الأناقة ، الذى يجلس مسترخيًا واثقًا ، على مقعده المفضَّل ..

الرجل الذى يتحدَّث بالإنجليزية بلهجة أمريكية ، وليست الروسية كما يفترض ..

« من أنت ؟! .. »

امتزجت ارتجافته بكثير من التوتر ، وقليل جدًّا من الصرامة ، فأجابه الرجل هذه المرة ، فى هدوء أكثر :

ـ صديق .. قلت لك أن تطمئن .

قال الروسى فى عصبية :

ـ صديق يتحدَّث الإنجليزية ؟!

نهض الرجل ، قائلًا :

ـ وهل هناك لغة خاصة للصداقة ؟!

مع تقدُّم الرجل نحوه ، تراجع (كورباكوف) فى حركة غريزية ، وهو يتساءل فى تحفز واضح :

ـ ماذا تريد منى بالضبط ؟!

توقَّف الرجل على مسافة متر واحد منه ، واعتدل فى اعتداد واضح ، وهو يجيب :

ـ أنا عالم فيزيائى مثلك يا بروفيسير ، ولكننى لم أبلغ ربع براعتك حتى .

قال (كورباكوف) فى عصبية :

ـ وماذا يريد عالم فيزيائى منى ؟!

صمت الرجل لحظة ، ثم قال :

ـ أعلم أنك تجرى بعض التجارب لحساب الجيش السوفيتى .

انعقد حاجبا الروسى فى شدة ، وهو يقول فى حدة :

ـ أنت جاسوس .. جاسوس أمريكى !!

ابتسم الرجل ابتسامة شاحبة ، وغمغم :

ـ لست حتى أمريكيًّا .

صاح به الروسى :

ـ اسمع يا هذا .. لو أنك تحاول تجنيدى ، أيًّا كانت جنسيتك ، فاعلم أننى وطنى مخلص ، و ...

قاطعه الرجل فى برود :

ـ تجنيدك ؟! .. هذا آخر ما يمكن أن يخطر ببالى .

هتف به :

ـ ماذا تريد إذن ؟!

مال الرجل نحوه بطريقة جعلته يتراجع فى توتر شديد ، وبالذات عندما مدَّ سبَّابته ؛ ليمس رأسه ، وهو يجيب :

ـ عقلك .

كرَّر الروسى فى توتر كان يبلغ ذروته :

ـ عقلى ؟!

اعتدل ذلك الغامض ، قائلًا :

ـ عبقريتك .. ألمعيتك .. كل طاقة الإبداع والابتكار فى خلايا مخك الرمادية .

ازدرد (كورباكوف) لعابه فى صعوبة ، مغمغمًا :

ـ أى نوع منها ؟!

صمت الرجل بضع لحظات ، مع ابتسامة باهتة ، ونظرة ثاقبة ، أطلقت قشعريرة عجيبة فى جسد العالم الروسى ، قبل أن يسمع الغامض يقول :

ـ ماذا عن الزئبق الأحمر(*) ؟!

امتقع وجه (كورباكوف) وهو يقول فى عصبية :

ـ لا يوجد شىء اسمه الزئبق الأحمر .

ابتسم الرجل ، ابتسامة فيها من الصرامة ، قدر ما فيها من السخرية :

ـ حقًّا .. لماذا إذن تحاول إنتاجه لحساب الجيش السوفيتى منذ السابع من أغسطس ١٩٨٨م ؟!

ازداد امتقاع وجه الروسى ، وشحب صوته ، وهو يغمغم :

ـ أنت من المخابرات الأمريكية .

بدا الرجل متوترًا ، لأول مرة ، وهو يقول :

ـ لا وقت نضيعه فى هذا يا بروفيسير .. حاول استغلال الفرصة ، قبل انهيار الاتحاد السوفيتى .

انتفض جسد الروسى فى عنف ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ انهيار ماذا ؟! .. أهذا ما تتمنونه أيها الأمريكيون ؟! .

هزَّ الرجل رأسه فى قوة ، وألقى نظرة على ساعته العجيبة ، فى توتر بالغ ، وهو يقول فى نفاد صبر :

ـ قلت لك لست أمريكيًّا .

(*) الزئبق الأحمر : مادة ذاع صيتها ، منذ ثمانينيات القرن العشرين ، وعلى الرغم من أن أحدًا لا يمكنه الجزم بوجودها ، إلا أن الكثيرين يؤمنون بوجودها ، وينسبون إليها سمات كيميائية خارقة ، أهمها قدرتها على إنتاج قنابل نووية ، صغيرة الحجم ، وذات قوة تفجير مذهلة ، تفوق بألف مرة قنبلتى (هيروشيما) و(ناجازاكى) فى الحرب العالمية الثانية ، وهذه الفكرة وحدها ، دفعت الكثير من الدول والتنظيمات للسعى للحصول عليه ، أو إنتاجه فى معاملها .

هتف (كورباكوف) ، وهو يشير إليه بسبَّابته :

ـ هذه لعبتهم دومًا .. يستعينون بعملاء من دول رأسمالية أخرى ، ولكن هذا لن يخدعنى ، والاتحاد السوفيتى لن ينهار أبدًا كما تتمنون .. لقد بدأ (جورباتشوف)(*) سياسة جديدة ؛ لوضعه على قمة العالم .. سياسة تعتمد على (البريسترويكا)(**) و (الجلاسونست)(***) و ...

قاطعه الرجل ، الذى تحوَّل من الهدوء الشديد ، إلى العصبية المفرطة :

ـ أنت تضيع الكثير من الوقت .. الكثير .

قالها ، واندفع نحو الباب ، واندفع عبره ، دون أن يحاول إغلاقه خلفه ..

ولثوانٍ ، تجمَّد (كورباكوف) فى مكانه ، ثم لم يلبث أن اندفع ليغلق الباب ..

وقبل أن يغلقه بثانية واحدة ، لمح ما يشبه بريقًا أزرق باهتًا ، ظهر وتلاشى على الفور ..

بريق أضاف إلى تلك الليلة المزيد من الغموض ..

ومن التوتر ..

بلا حدود ..

* * *

(*) ميخائيل سيرجيفينيتش جورباتشوف : الرئيس السابع والأخير للاتحاد السوفيتى (١٩٨٥ ـ ١٩٩١م) ، درس القانون فى جامعة (موسكو) وانضم إلى الحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٥٢م ، وشغل منصب رئيس الحزب الشيوعى ، كان يدعو لإعادة البناء ، شارك رونالد ريجان فى إنهاء الحرب الباردة ، وحصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٠م .

(**) البريسترويكا : بالروسية تعنى إعادة البناء .

(***) الجلاسونست : بالروسية تعنى الشفافية .

• القاهرة سبتمبر ٢٠١٤م :

« أين تلك الورقة ، التى أخبرتنى عنها يا دكتور (طه) ؟! .. »

ألقى وزير الآثار سؤاله فى ضجر ، وهو يحدِّق فى الحقيبة ، التى فتحها (طه) أمامه ، والتى لم تحو سوى أوراقه العادية فحسب ..

أما الدكتور (طه) نفسه ، فقد امتقع وجهه فى شدة ، وحدَّق فى الحقيبة ذاهلا ، وهو يغمغم :

ـ كانت هنا !! .. لست أدرى كيف ...

قاطعه وزير الآثار فى ضيق :

ـ كفى يا دكتور (طه) .. إنك تهدم تاريخك كله ، بتصرفاتك هذه .

قال (طه) فى يأس :

ـ أقسم لك يا سيادة الوزير ..

ثم بتر عبارته دفعة واحدة ، وكأنما أيقن فى داخله ، أنه ليست هناك أية جدوى مما يقول ..

الورقة العجيبة ، التى وضعها بنفسه فى حقيبته ، قبل أن يغلقها ، ويمسك مقبضها ، دون أن يفلته ، إلا فى حضرة الوزير ، اختفت !!!

ولكن كيف ؟! ..

ليس يدرى !!!

وهذا ليس الشىء الوحيد ، الذى لن يمكنه إثباته .. حتى لنفسه ..

فهو شخصيًّا ، بدأ يشك فى كل ما حدث !! ..

وفى أنه بالفعل حدث !!

« ما زالت إجازتك سارية ، يا دكتور (طه) .. »

انتزعه الوزير من أفكاره وتوتراته ، فرفع عينيه إليه ، وهو يغلق حقيبته :

ـ أعلم هذا يا سيادة الوزير .

وضع الحقيبة إلى جواره ، وهو يضيف :

ـ يبدو أننى أحتاج إليها بالفعل .

بدا أن هذا قد أراح الوزير ، الذى قال :

ـ كلنا فى حاجة إلى الراحة ، بين الحين والآخر يا دكتور (طه) .

نهض (طه) ، ووافقه بإيماءة من رأسه ، ثم رفع سبَّابته ، قائلًا :

ـ وبعد الإجازة ، نبدأ فى الحفر .

سأله الوزير فى قلق :

ـ حفر ماذا ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ الممر .. الممر الذى يقود إلى قاعة كنوز الحكمة ، أسفل (أبى الهول) .

تطلَّع إليه الوزير طويلا ، بنظرة أقرب إلى الأسى ، قبل أن يقول :

ـ لا يوجد دليل علمى واحد على ما تقول ، يا دكتور (طه) .

أشار بسبَّابته ، قائلًا فى ثقة :

ـ أبحاثى تؤكد هذا .

تنهَّد الوزير ، وهزَّ رأسه قبل أن يقول :

ـ فليكن .. سنؤجل هذا لما بعد عودتك من إجازتك إن شاء الله .

غادر (طه) مبنى الوزارة ، وهو واثق من أن الوزير يراه مجنونًا ..

وربما هو كذلك بالفعل ..

ففى أعماقه ، كانت لديه ثقة عجيبة ، فى أنه إذا ما بدأ الحفر فى النقطة التى أشار إليها ذلك الأنيق الغامض ، فسيصل حتمًا إلى شىء ما ..

شىء قد يحدث انقلابًا فى علم الآثار ..

أو فى حياته هو ..

لا يمكنه الجزم ..

أبدًا ..

***

* كاليفورنيا يناير ٢٠١٩م :

عند مدخل القاعة ، التى كانت ذات مرة معمل الدكتور (رياض يوسف) ، توقف الجنرال (جاكوب) متوترًا ، فالتفت إليه المستشار العلمى للرئيس الأمريكى فى صرامة :

ـ ماذا هناك ؟!

حمل صوت (جاكوب) توترًا ملحوظًا ، وهو يغمغم :

ـ لا شىء .

لهجته جعلت المستشار العلمى يتردَّد لحظة عند مدخل القاعة ، ثم يشير إلى فريقه العلمى ، فتحرك رجال الفريق ، فى ثياب مضادة للإشعاعات ، وهم يحملون معداتهم ، وتابعهم (جاكوب) ببصره ، وهو يغمغم فى توتر ، صار لصيقًا بلهجته :

ـ ماذا تريدون ؟!

أجابه المستشار العلمى فى حزم :

ـ أزياء واقية .. لسنا ندرى بعد ماذا يوجد هنا ؟!

تراجع الجنرال (جاكوب) ، وترك رجال الفريق يدلفون إلى القاعة الخالية ، ويزرعون معداتهم فيها ..

فى البداية ، أشارت العدَّادات إلى خلو القاعة من الإشعاع ، فقال كبيرهم ، عبر جهاز اتصال خارجى :

ـ المكان آمن .

العبارة جعلت المستشار العلمى والجنرال (جاكوب) يلحقان بالرجال فى القاعة ، والمستشار العلمى يقول فى حزم :

ـ خلو القاعة من الإشعاعات ، لا يعنى خلوَّها من أية تأثيرات أخرى .

غمغم رئيس الفريق :

ـ الأجهزة تبدأ عملها يا سيدى ، و ..

بتر عبارته هتاف أطلقه أحد رجاله ، فالتفت الجميع إليه ، وسأله (جاكوب) بكل توتره :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار الرجل إلى مؤشرات جهازه ، قائلًا :

ـ هناك شىء ما ، يسبِّب اضطراب القياسات بشدة .

قال آخر ، تعقيبًا على زميله :

ـ البوصلة أيضًا مضطربة ، تدور إبرتها حول مركزها طوال الوقت .

اندفع نحوه المستشار العلمى ، هاتفًا :

ـ غير معقول .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتابع حركة البوصلة ، ومؤشرات الأجهزة ، ثم جذب حامل البوصلة ، قائلًا فى توتر :

ـ تعال .

خرجا معًا من القاعة ، وهنا كانت المفاجأة أكبر !! ..

فور خروجهما من القاعة ، عادت البوصلة تعمل ، على نحو طبيعى ، واتجه مؤشرها فورًا إلى الشمال المغناطيسى ، فازداد انعقاد حاجبى المستشار العلمى ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ عجبًا !!

عاد مع الرجل إلى القاعة ، فعاد الاضطراب إلى إبرة البوصلة ، وعادت تدور حول محورها ، وكأنها عاجزة عن تحديد الشمال ، فالتقط المستشار العلمى نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة توتره ، وقال :

ـ كنت على حق يا جنرال .

هتف (جاكوب) ، فى انفعال :

ـ ألم أقل لكم ؟!

تابع المستشار العلمى ، وكأنه لم يسمعه :

ـ هناك أمر غامض يحدث فى هذه القاعة ..

وكان على حق تمامًا ..

هناك أمر غامض يحدث بالفعل فى هذه القاعة ..

بل أمر شديد الغموض ..

إلى حد لا يمكن تصوّره ..

أبدًا ..

***

* القاهرة إبريل ٢٠٢١م :

نهض الدكتور (محمد على) ، يصافح رجل الأعمال ، الذى التقى به فى المؤتمر العلمى ، منذ أقل من شهرين ، وغمغم فى حرج ، وهو يشدُّ على يده :

- يسعدنى أن ألتقى بك مرة أخرى ، يا (صفوت) بك .

جلس الرجل فى هدوء ، وهو يقول :

- لى كل الشرف ، أن ألتقى بك دومًا يا دكتور (محمد) .

جلسا صامتين لحظات ، ثم ألقى الرجل نظرة على ساعته ، ذات الحجم الكبير على نحو مبالغ ، وقال :

- معذرة يا دكتور (محمد) ، ولكن وقتى ضيق دومًا للأسف ، ولن يمكننى البقاء لفترة طويلة .

شعر الدكتور (محمد) بالإحراج ، وهمَّ بالنهوض ، وهو يغمغم :

- لا بأس .. يمكننا أن نؤجل هذا لـ ..

فوجئ بالرجل يقول فى صرامة آمرة :

- اجلس يا دكتور (محمد) .

لم تكن لهجته تليق فى محادثة رجل فى سن والده ، يتمتع بمكانة علمية واجتماعية كبيرة ..

ولكن شيئًا ما جعل الدكتور (محمد) يجلس ، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة ، من فرط الحرج ، فمال (صفوت) بك هذا نحوه ، وقال :

- أنت هنا من أجل تمويل تلك التجربة العلمية ، التى أشرت إليها ، عندما أرسلت رسالتك .

غمغم الدكتور (محمد) ، وشعوره بالحرج يتضاعف :

- إنه عالم عبقرى ، ومشروعه سوف ..

قاطعه الرجل فى حزم :

ـ أنا أوافق .

تراجع الدكتور (محمد) فى دهشة ، مع تلك الموافقة السريعة ، من رجل أعمال ، فغمغم :

ـ حقًّا ؟!

ألقى الرجل نظرة أخرى ، على ساعته العجيبة ، وأخرج دفتر شيكاته ، وهو يقول فى سرعة :

ـ أنا واثق ، من أنه كشف عظيم ، ستكون له أعظم النتائج ، فى السنوات العشر القادمة .

خط كلمات فى سرعة على شيك ورقى ، وذيَّله بتوقيعه ، ثم ناوله إلى الدكتور (محمد) ، مستطردًا :

ـ أظن هذه دفعة كافية .. تقبَّل اعتذارى يا دكتور (محمد) ؛ فلا بد وأن أنصرف الآن .

تمتم الدكتور (محمد) فى حرج شديد :

ـ لا عليك .

تركه وانصرف فى سرعة ، فتابعه الرجل ببصره لحظات ، ثم خفض عينيه إلى ذلك الشيك ، و ...

وانتفض جسده كله فى عنف ..

فالرقم الذى حواه الشيك ، كان بالفعل مفاجئًا ..

إلى حد الذهول ..

* * *

* القاهرة مايو ٢٠٢٥م :

« (نجيب باشا خورشيد) !! .. »

نطق (إبراهيم عيسوى) الاسم فى حيرة واضحة ، جعلت مراسل الجريدة يسأله فى قلق :

ـ لماذا يدهشك الاسم يا أستاذ (إبراهيم) ؟!

صمت (إبراهيم) لحظات ، ثم هزَّ كتفيه ، مغمغمًا :

ـ العقد يحمل اسمه ، ولكن هذا هو الشىء الوحيد ، الذى يحمل اسمه .

شعر المراسل بالحيرة ، وهو يغمغم :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

اعتدل (إبراهيم) فى حركة حادة ، تشف عن توتره ، وهو يجيب :

ـ الاسم يوحى بأنه كان أحد المعدودين ، فى تلك الفترة من أربعينيات القرن العشرين ، وعلى الرغم من هذا ، فكل صفحات الاجتماعيات فى صحف ومجلات تلك الحقبة ، تخلو من اسمه تمامًا .

فكَّر المراسل قليلا ، ثم هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ربما كان عزوفًا ، عن تلك المناسبات الاجتماعية .

صمت (إبراهيم) لحظات أخرى ، قبل أن يهزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ربما .

وعاد إلى صمته لحظة ، ثم اندفع مستدركًا :

ـ ولكنه دفع ألف جنيه فى قطعة من رمال الصحراء ، وكان هذا المبلغ بمثابة ثروة فى تلك الحقبة ، والواقعة نفسها خبر صحفى ، فكيف تم تجاهله صحفيًا ، إلى هذا الحد ؟!

قال المراسل فى سرعة :

ـ التفسير الوحيد ، أن أحدًا لم يعلم به فى حينه .

لم يرق التفسير للأستاذ (إبراهيم) ، فاكتفى بمط شفتيه ، وقلب كفيه ، دون أى تعليق ..

ولكن عقله لم يستسلم لهذا ..

فبحسه وخبرته الصحفية ، كان واثقًا من أنه من المستحيل إخفاء أمر كهذا ..

رجل يشترى رمال الصحراء بألف جنيه !!

رأى بخياله المانشيت الصحفى ، الذى لا بد وأن يسيل له لعاب أية مطبوعة ، ولو بإشارة سريعة ..

فى غمغمة ، توحى بأنه يحدِّث نفسه ، قال :

ـ ولكن كيف ؟!

اعتدل دفعة واحدة ، وهتف :

ـ العنوان .

سأله المراسل فى شغف :

ـ أى عنوان ؟!

أشار (إبراهيم) إلى الصورة الضوئية ، التى تركها الزائر الغامض ، وهو يهتف ، وقد شمله حماس مفاجئ :

ـ عقد البيع القديم يحوى عنوان (نجيب) باشا هذا .

ألقى المراسل نظرة على العنوان ، وتمتم :

ـ إنه عنوان فى حى عتيق ، هل تعتقد أن المبنى لا يزال قائمًا يا أستاذ .

هبَّ (إبراهيم) من مقعده ، هاتفًا :

_ دعنا نأمل هذا .

حملتهما سيارة (إبراهيم) إلى ذلك العنوان فى مصر القديمة ..

وبسرعة عثروا عليه ..

المدهش أن البناء كان قائمًا ، على الرغم من أن عمره يتجاوز المائتى عام ..

أما المفاجأة الكبرى ، فكانت أنه بناء متواضع للغاية ..

وفى حى متواضع إلى حد كبير ..

باختصار ، كان مكان يستحيل أن يحيا فيه رجل يحمل لقب باشا ..

أبدًا !!!

* * *



الفصل الخامس

* **القاهرة إبريل ٢٠٢١م :**

لدقيقة أو تزيد ، حدّق الدكتور (طارق) فى ذلك الشيك ، قبل أن يرفع عينيه إلى أستاذه الدكتور (محمد) ، مغمغمًا فى صوت ، لم يفارقه الذهول بعد :

ـ عشرة ملايين !! .. أأنت واثق من أن هذا الشيك قابل للصرف يا دكتور (محمد) ؟!

أومأ الدكتور (محمد) برأسه ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد .. وزيارة واحدة للبنك ، ستثبت هذا .

حدّق (طارق) فى الشيك مرة أخرى ، ثم هزّ رأسه فى قوة :

ـ ووقْعه بالبساطة التى رويتها ؟! .. ما زلت عاجزًا عن استيعاب هذا !! .. رجال الأعمال لا ينفقون أموالهم بهذه البساطة .

مال الدكتور (محمد) نحوه فى جدية :

ـ الرجل التقيت به منذ ثلاثة أشهر تقريبًا فى مؤتمر علمى ، ولقد أدهشنى أمره حينذاك ، حتى إننى سألته عن سر تواجد رجل أعمال فى مؤتمر علمى .

سأله (طارق) فى شغف :

ـ وبم أجاب ؟!

تراجع الدكتور (محمد) فى مقعده ، وهو يلوِّح بيده :

ـ بأنه عاشق للعلم ، ويرى فيه طريق المستقبل .

غمغم (طارق) :

ـ هذا صحيح .

ثم استدرك فى انفعال :

ـ ولكن أن يدفع عشرة ملايين .

تطلَّع الدكتور (محمد) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى حزم :

ـ كف عن إجهاد عقلك فى البحث عن دوافع مموِّلك ، وادخر كل خلية ، من خلايا مخك فى إتمام عملك .

تنهد (طارق) ، وهو يتراجع فى مقعده ، ملقيًا نظرة أخيرة على الشيك :

ـ أنت على حق .

ودسَّ الشيك فى حافظته ، وهو يتساءل :

ـ ألا يمكنك أن تصفه لى على الأقل ؟!

ابتسم الدكتور (محمد) :

ـ ليس أسهل من هذا .. إنه أبيض طويل ، شديد الأناقة .. بدت الدهشة ، فى عينى (طارق) ، وهو يقول :

ـ ويرتدى ساعة مميزة ، كبيرة الحجم .

حدَّق فيه الدكتور (محمد) فى دهشة :

ـ هل تعرفه ؟!

انعقد حاجبا (طارق) ، وغمغم ، وعقله يحاول استرجاع ذكريات بعيدة :

ـ أظن هذا .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يستطرد :

ـ فى نهاية صيف ٢٠١٨م ، فى مكتبة (الإسكندرية) .

أغلق عينيه ، وكأنما يتيح لباقى حواسه العمل ، وصمت لثوانٍ ، قبل أن يتابع :

ـ كان ينشد توقيعى ، على أحدث كتاب لى حينذاك .

ثم فتح عينيه ، وحمل صوته لمحة من الانفعال ، وهو يهتف :

ـ وربما هو من أوحى لى ، بما توصلت إليه .

هتف الدكتور (محمد) :

ـ حقًّا ؟!

انتقل حماسه إلى (طارق) ، الذى تابع :

ـ ربما هو أوّل من وجّه عقلى ، إلى ربط المجال الموحَّد بالسفر عبر الزمن .

سأله الدكتور (محمد) :

ـ لهذا تذكره .. وتذكر ساعته العجيبة بالتحديد .

تردَّد (طارق) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ الساعة أذكرها ، لأنها لم تكن ساعة عادية .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ كانت أضخم مما ينبغى .

بدا (طارق) شاردًا ، وهو يقول :

ـ ليست ضخامتها فحسب .

حمل صوت الدكتور (محمد) كل انتباهه واهتمامه ، وهو يسأله :

ـ ماذا أيضًا ؟!

حاول (طارق) اعتصار ذهنه ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه غمغم فى النهاية :

ـ لست أدرى .

تراجع الدكتور (محمد) فى مقعده كثيرًا ، وهو يغمغم :

ـ هل تعلم ؟!

رفع إليه (طارق) عينين متسائلتين ، فغمغم فى توتر :

ـ أنا أيضًا لست أدرى .

وصمت لحظة ، ثم استدرك :

ـ ولكن هذا الرجل به شىء غريب .. غريب جدًّا .

وكان كلاهما على حق ..

الى درجة يستحيل أن يتصوراها ..

على الإطلاق ..

* * *

* موسكو مارس ١٩٩٠م :

حمل صوت وملامح الجنرال (إيفان) ، رجل المخابرات السوفيتية ، كل الصرامة والقسوة ، وهو يقول لـ (ألكسندر كورباكوف) ، الجالس مرتجفًا أمامه :

ـ رجل مخابرات أمريكى فى منزلك !! .. هل جننت يا رجل ؟! .. كيف يمكن أن يصل رجل مخابرات أمريكى إليك ، ولقد حرصنا بشدة ، على أن يجهل الكل عملك معنا ؟!

قلّب (كورباكوف) كفيه المرتجفتين ، وهو يقول ، فى صوت أكثر ارتجافًا :

ـ ولكن هذا ما حدث .. لقد فوجئت به فى منزلى ، عند عودتى إليه ليلا ، وكان يعلم عنى كل شىء .

انعقد حاجبا (إيفان) الكثان ، وهو يغمغم فى قسوة :

ـ كل شىء ؟!

أومأ (كورباكوف) برأسه ، وتابع :

ـ عملى لحساب الجيش السوفيتى ، ونوعية أبحاثى أيضًا .

كاد الجنرال (إيفان) يقفز من خلف مكتبه ، وهو يهتف :

ـ نوعية أبحاثك ؟!

عاد (كورباكوف) يومئ برأسه ، وارتجف صوته أكثر ، وهو يميل نحو (إيفان) ، هامسًا :

ـ الزئبق الأحمر .

التقا حاجبا (إيفان) الكثان ، حتى كادا يمتزجان ، وحدّق طويلًا فى وجه (كورباكوف) ، ثم التقط سمّاعة هاتف ، من الهواتف الستة ، على سطح مكتبه ، وقال عبره فى صرامة :

ـ أرسل (بوتشكى) .

لم تمضِ دقيقة واحدة ، حتى ظهر رجل ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، على نحو مبالغ ، وقال فى صوت شديد الخشونة :

ـ أوامرك يا جنرال .

لم يقل الجنرال (إيفان) كلمة واحدة ، وإنما أشار بسبَّابته إلى (كورباكوف) ، الذى تضاعفت ارتجافته ، وانكمش فى مقعده ، وهو يهتف :

ـ لقد أخبرتكم كل ما أعرفه .

ولكن أحدًا لم يبالِ بهتافه ..

لقد انقض عليه (بوتشكى) هذا ، وهوى على رأسه بضربة ثور من قبضته ، فدارت عينا (كورباكوف) فى مقلتيهما ، وهوى فاقد الوعى ، فى لحظة واحدة ..

وفى هدوء ، انحنى (بوتشكى) ينتزعه من مقعده ، ويلقى به على كتفه ، وكأنه طفل صغير نائم ، ثم اعتدل فى وقفة عسكرية صارمة ، وهو يتطلَّع إلى الجنرال (إيفان) ، الذى ظلَّ على صمته الصارم ، مكتفيًا بإيماءة من رأسه ، استدار على إثرها العملاق ، وغادر الحجرة ، وهو يحمل (كورباكوف) على كتفه ، إلى مكان ما ..

مكان هو الجحيم ..

أو أشد قسوة ..

* * *

*** القاهرة مايو ٢٠٢٥م :**

« هذا لا يدل على شيء .. »

هزَّ وزير العدل رأسه نفيًا ، وهو يقولها لـ (إبراهيم) ، الذى زفر فى توتر ، وهو يقول :

ـ أليس هذا دليلا على عدم صحة هذا العقد ؟!

سأله الوزير :

ـ من أية ناحية ؟! .. القانون لا يصرُّ على أن يحيا الباشا فى سراى أو قصر .. وربما هو عنوان أحد خدمه ، وفى كل الأحوال ، فعنوان السكن لا يمثِّل عائقًا للتملُّك .

قال (إبراهيم) فى ضيق :

ـ الرجل ليس باشا حتمًا .

أجابه الوزير فى حزم :

ـ هذا ليس شرطًا لصحة التملك .

لوَّح (إبراهيم) بيده فى توتر :

ـ وماذا لو ..

قاطعه الوزير بكل الصرامة :

ـ أستاذ (إبراهيم) .. عقد البيع مسجَّل ، فى السجلات القديمة ، وعقد الملكية صحيح ، وفقًا لرأى الخبراء ، فما الذى تفعله بالضبط ؟!

تراجع (إبراهيم) فى مقعده فى ضيق ، وهو يغمغم :

ـ أحاول منع الدولة ، من دفع خمسة مليارات لنصاب .

لوَّح الوزير فى وجهه فى صرامة :

ـ حذار يا أستاذ (إبراهيم) .

اعتدل (إبراهيم) فى توتر ، فتابع الوزير بكل الصرامة :

ـ عليك أن تثبت أوَّلًا أنه نصاب .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ وإلا ألقاك فى السجن ، بتهمة التشهير .

غمغم (إبراهيم) فى توتر :

ـ أيضًا ؟!

ظلَّت العبارة تدوى فى ذهن (إبراهيم) ، وهو يقود سيَّارته ، عائدًا إلى جريدته ..

« عليك أن تثبت أوَّلًا أنه نصاب .. »

تكرَّرت العبارة فى ذهنه عدة مرات ، قبل أن يتمتم :

ـ نعم .. لا بد وأن أثبت أنه نصاب .

ثم ضغط زر اتصال ، فى تابلوه السيارة ، وقال فى حزم :

ـ أريد جمع كل مراسلينا على الفور .. لدينا مهمة تحتاج منا شحذ كل جهودنا ..

صمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم أشد :

ـ كلها ..

كان عليه ، لكى يربح هذه القضية ، أن يحشد جيشه كله ..

إن كان هذا يكفى ..

***

*** كاليفورنيا يناير ٢٠١٩م :**

علـى نحـو عجيب تحوَّلـت القاعـة ، التـى أخليت باختفـاء معمـل الدكتـور (رياض) ، إلى مكان مزدحم بالأجهزة والمعدات والعلماء ورجال الأمن ، والكل يحـاول أن يرصـد ويحلل ، ويستوعب سبب الخلل الكهـرومغناطيسى داخـل القاعة ..

كل النظريات والدراسات والتحليلات العلمية ، فشلت فى إيجاد تفسير لهذا !..

كانت القاعة تبدو ، وكأنها منفصلة تمامًا عن عالمنا ..

كل القواعد الفيزيائية ، باستثناء الجاذبية الأرضية ، لم تكن مطبقة هناك .. كلها ..

« ماذا تعنى بهذا ؟! .. »

ألقى الرئيس الأمريكى السؤال ، فى توتر شديد ، على مستشاره العلمى ، عبر اتصال مرئى مؤمَّن ، فهزَّ المستشار رأسه ، وغمغم فى توتر ملحوظ :

ـ فريق العلماء كله لم يجد تفسيرًا ، يا سيادة الرئيس .. ما أن تعبر مدخل تلك القاعة ، حتى تختل كل قواعد الفيزياء الأرضية المعروفة .

سأله الرئيس فى قلق :

ـ هل تعنى أنها تنتمى إلى عالم آخر ؟!

تردَّد المستشار لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ احتمـال بعيد يـا سيـادة الرئيس ؛ فالقاعـة كانت هنا ، منذ كـان الدكتـور (يوسف) هذا يعمل فيها .

قال الرئيس :

ـ اختفاؤه إذن ، هو السبب فى هذا !

أجاب المستشار فى سرعة :

ـ بالتأكيد ، وإلا فما مبرِّر الاختفاء .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ أعنى أن كل هذا لم يحدث ، إلا عقب الاختفاء .

صمت الرئيس لحظات مفكرًا ، ثم اعتدل يقول فى اهتمام :

ـ ماذا لو أنه هو من فعلها ؟!

انعقد حاجبا المستشار ، وهو يكرر فى تفكير :

ـ هو ؟!

تابع الرئيس فى حزم :

ـ فى آخر لقاء له مع الجنرال (جاكوب) ، هدَّده هذا الأخير على نحو صريح ، والرجل عالم لا يشق له غبار ، وهذا كان سبب حاجتنا إليه ، فماذا لو أنه كانت لديه وسيلة ، تشبه ما فعلناه فى تجربة (فلادلفيا) ، فى أربعينيات القرن العشرين .

ازداد انعقاد حاجبى المستشار العلمى ، وهو يغمغم :

ـ تجربة إخفاء سفينتنا !! .. صحيح أن هذا لم يكن تخصصه ، ولكن لا ...

قال الرئيس فى حماس :

ـ فى هذه الحالة ، فالدكتور (يوسف) هذا وكل معمله ، لا يزالون داخل الحجرة ، ولكنهم غير مرئيين .

تنهّد المستشار العلمى ، مغمغمًا :

ـ مستحيل !

سأله الرئيس فى توتر :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ لأننا نحتل المكان بالفعل .

التقى حاجبا الرئيس فى تساؤل ، فتابع مستشاره العلمى :

ـ الإخفاء يمنع العين من رصد الشىء ، ولكنه لا يلغى كيانه المادى .. قد لا نراه ، ولكنه يظل هنا .. وربما يمكننا لمسه أيضًا ، و ...

قاطعه الرئيس فى صرامة :

ـ وصلت الفكرة .

ثم تراجع ، مستطردًا فى توتر :

ـ ماذا يحدث فى تلك القاعة إذن ؟!

ولم يجب المستشار العلمى ..

فالسؤال يلهب ويلتهم خلايا عقله أيضًا ..

ماذا يحدث حقًّا فى تلك القاعة ؟!

ماذا ؟! ..

ماذا ؟! ..

***

* **الجيزة ، يونيو ٢٠١٨م :**

جفف الدكتور (طه) عرقه ، وراجع نتائج الحفريات ، قبل أن يقول لمساعده (مسعد) فى اهتمام :

ـ يبدو أن ذلك الجدار ، الذى توقفنا عنده ، هو بالفعل مدخل ممر .

غمغم (مسعد) فى انفعال :

ـ الممر إلى قاعة الحكمة .

هزَّ (طه) رأسه ، مع ابتسامة هادئة ، وغمغم :

ـ ألن تنسى تلك الخرافات أبدًا ؟!

هزَّ مسعد كتفيه ، وقال :

ـ ولماذا خرافات ؟! .. لو أننا عثرنا على مدخل ممر بالفعل ، فسيقودنا إلى مكان ما حتمًا .

قال (طه) :

ـ أو مقبرة ما .

انقلبت سحنة (مسعد) ، وهو يكرِّر فى إحباط :

ـ أو مقبرة ما .

ربَّت (طه) على كتفه :

ـ هذا سيكون انتصارًا عظيمًا ، وكشفًا أثريًّا مبهرًا .

غمغم فى أسى :

ـ المقبرة ؟!

عاد (طه) يربِّت على كتفه :

ـ كشف مقبرة (توت عنخ آمون) (*) ، كان قنبلة فى حينه ، وحدثًا أثريًّا ، هزَّ العالم كله آنذاك ، فما بالك بقبر قد يكتشف ، أسفل أعظم تمثال فى الوجود .

غمغم (مسعد) :

ـ كنت أتمنى أن تكون قاعة الكنوز .

ثم استدرك ، وهو يلوِّح بكفيه فى انفعال :

ـ ألن يكون هذا كشفًا أعظم ؟!

غمغم (طه) :

ـ بالطبع .

ثم استطرد مبتسمًا :

ـ لو أنه هناك قاعة كنوز بالفعل .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين هاتفه المحمول ، فالتقطه يلقى نظرة على شاشته ، وغمغم فى حيرة :

ـ عجبًا !!

اعتدل (مسعد) ، يسأله فى اهتمام :

ـ ماذا هناك ؟!

غمغم فى توتر :

ـ الشاشة لا تحمل رقمًا .

(*) توت عنخ آمون : أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، فى تاريخ مصر القديم ، حكم من ١٣٣٤ إلى ١٣٢٥ ق.م ، ويعتبر من أشهر فراعنة (مصر) ، بغض النظر عن الإنجازات والحروب ، ولكن لكشف مقبرته عام ١٩٢٢م ، وكانت أوَّل مقبرة تحوى كنوزها بالكامل دون أى تلف أو كسور ، وللغز الذى صحب الكشف عن مقبرته ، وهو ما سمى ، وحتى يومنا هذا ، بلعنة الفراعنة .

هتف (مسعد) :

ـ أجب فى سرعة إذن .. عدم وجود رقم، يعنى أهمية المتصل .

ضغط (طه) زر الاستجابة بالفعل ، وهو يقول فى حذر :

ـ ألو .. من المتصل ؟!

سمع صوتًا هادئًا ، يقول :

ـ ألا تشعر بالسعادة ؛ لكشفك مدخل الممر ؟!

بكل الدهشة ، هتف (طه) :

ـ من المتحدث ؟!

أجابه صاحب الصوت الهادئ ، متجاوزًا السؤال :

ـ لقد بدأت الحفر ، فى الموقع ، الذى حددته لك .. أليس كذلك ؟!

امتقع وجه (طه) ، وهو يغمغم ، فى صوت شاحب :

ـ أهو أنت ؟!

ثم اندفع ، مستطردًا :

ـ كيف علمت أننا قد عثرنا على المدخل ؟! .. لقد تم هذا ، منذ أقل من ساعة واحدة !!

قال صاحب الصوت ، بنفس الهدوء :

ـ فى الثالثة ، وسبع عشرة دقيقة عصرًا .

هتف (طه) فى ذهول :

ـ كيف علمت هذا ؟!

نهض (مسعد) ، يتساءل فى توتر :

ـ ماذا هناك يا دكتور (طه) ؟!

أشار إليه (طه) بالصمت ، وهو يستمع إلى الرجل يقول عبر الهاتف :

ـ السادسة من مساء الغد ، فى نفس الفندق .

انتفض جسد (طه) ، وهو يهتف :

ـ اسمع يا هذا .

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ إياك أن تتأخَّر دقيقة واحدة .

ثم أنهى المحادثة على الفور ، تاركًا الدكتور (طه) ذاهلا ، وعقله يطرح عليه ألف سؤال وسؤال ..

من هذا الرجل ؟! ..

وكيف يستطيع معرفة كل هذا ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

* * *

* **مكان ما .. وزمان ما :**

لدقيقة كاملة ، جلس الدكتور (رياض) صامتًا ذاهلا ، يحدِّق فى الفراغ ، على نحو جعل ذلك الرجل الغامض يلوذ بالصمت ، حتى قال فجأة :

ـ لم أتوقَّع هذا التأثير ، على عالم مثلك !

عبارته انتزعت (رياض) من حالته ، فالتفت إليه فى بطء ، وقال فى توتر :

ـ هذا ليس سهلا .

وافقه بإيماءة من رأسه ، وقال فى هدوء :

ـ وليس من المستحيل أيضًا .. بالنسبة لعالم مثلك على الأقل .

زفر الدكتور (رياض) ، وهزَّ رأسه :

ـ الحسابات الفيزيائية شيء ، ومواجهة الأمر شيء آخر .

مال الرجل نحوه ، مضيفًا :

ـ واعتياده شيء ثالث .

تمتم (رياض) :

ـ من الصعب جدًّا .

تراجع الرجل في مقعده ، قائلًا :

ـ معملك موجود بالكامل ، ولقد أوصلت أجهزتك ببنك معلومات خاص ؛ باعتبار أنه من المستحيل العثور على شبكة إنترنت هنا .

التفت إليه (رياض) ، متسائلًا :

ـ ولكن لماذا ؟!

صمت الرجل بضع لحظات ، ثم أجاب في بطء :

ـ كان لا بد أن أنقذك منهم .

غمغم (رياض) :

ـ من الأمريكيين ؟!

تابع الرجل ، وكأنه لم يسمعه :

ـ وأن أحافظ على حياتك أيضًا .

قال (رياض) في حدة :

ـ لم أكن لأتعاون معهم أبدًا .

قال الرجل في هدوء :

ـ ولم يكونوا ليسمحوا لك بهذا .

قال في عصبية :

ـ ليست لديهم وسيلة للضغط .. لست متزوجًا ، وبلا أطفال ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ لديهم وسائل شديدة القسوة .

تراجع (رياض) فى مقعده ، وغمغم قلقًا :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ ستضطر للعمل لحسابهم ، وستكمل أبحاثك ، حتى منتصف ٢٠٢٠م ، ثم ستصاب باكتئاب شديد ، و ...

هتف به (رياض) ، فى صوت مختنق :

ـ مجرَّد استنتاجات .

تجاهله الرجل تمامًا ، وهو يكمل :

ـ وستدرك أن كشفك ، الذى قمت به من أجل البشرية ، يمكن أن يتحوَّل إلى أكبر كارثة على البشرية ، وستتخذ أخطر قرار فى حياتك .

ازدرد (رياض) لعابه فى صعوبة ، مغمغمًا :

ـ وهو ؟!

صمت الرجل طويلا ، وهو ينظر إليه ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ ستنتحر .

وانتفض جسد (رياض) .

وبمنتهى العنف .

* * *



الفصل السادس

* **الجيزة يونيو ٢٠١٨م :**

فى تمام السادسة ، كان الدكتور (طه) يفرك كفيه فى توتر ، وهو يجلس فى قاعة ذلك الفندق الفخم ، المطلّ على النيل ، فى انتظار وصول ذلك الرجل الغامض ..

الرجل الذى يبدو وكأنه يعلم كل شىء ..

وعلى نحو عجيب ..

لم يكن ذلك السؤال قد فارق ذهنه ، منذ التقى به لأوّل مرة ، فى موقع الحفر ..

من ذلك الرجل ؟! ..

وكيف يستطيع معرفة أمور ، لم يبلغ بها المسئولين حتى ؟! ..

راح يتلفّت حوله فى توتر ، وتساؤل جديد يجول فى ذهنه ..

أهو مراقب ؟! ..

هل دسُّوا أجهزة تنصت فى موقع الحفر ؛ لسماع كل ما يقول ؟! ..

ولكن كيف ؟! ..

وأين ؟! ..

كل ما يحيط به رمال !! ..

مجرَّد رمال !! ..

إلا لو كانت هناك وسائل أخرى يجهلها !! ..

قبل أن يتمادى فى أفكاره ومخاوفه ، برز ذلك الرجل فجأة ، وهو يتجه إليه ..

كان هادئًا أنيقًا كعادته ..

واثق الخطى ..

شديد الاعتداد ..

وهذا أوحى إليه ، بأنه رجل أمن رفيع المستوى ..

هذا وحده يمكن أن يفسِّر كل شىء ..

« تأخرت أنا هذه المرة .. » ..

قالها الرجل ، مع ابتسامة شاحبة ، قبل أن يجلس أمام (طه) ، الذى غمغم :

ــ لا بأس .

ثم استدرك فى سرعة ، وفى لهجة عصبية :

ــ لست أدرى ماذا تريد منى بالضبط ؟!

تراجع الرجل فى مقعده فى هدوء ، ولوَّح بكفه :

ــ من منا أفاد من الآخر حتى الآن ؟!

تزايدت عصبية (طه) :

ــ أنت قلتها .. حتى الآن .

صمت الرجل لحظة ، ثم قال فى حزم :

ــ عندما يلمع اسمك فى كل الأوساط العلمية ، ستدرك أنك أنت من استفاد .

مال (طه) نحوه ، وهو يقول فى حدة :

ــ وهل تفعل هذا لوجه الله سبحانه وتعالى وحده ؟!

أجاب الرجل فى صرامة :

ـ كلا بالطبع .

ثم اعتدل فى حركة حادة ، وهو يضيف :

ـ سأساعدك ؛ لتحصل على ما تريد ، ولأحصل أنا على ما أريد .

غمغم (طه) فى توتر :

ـ وماذا تريد ؟!

لم ترق له ابتسامة الرجل ، وهو يجيب :

ـ ستعلم فى حينه .

شعر (طه) بغضب ، جعله ينتفض ، وهو يقول :

ـ مهما قلت أو فعلت ، لن تحصل على ذرة تراب ، مما قد نعثر عليه .

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة ساخرة :

ـ لا تقلق .. سأترك التراب كله لك .

هتف به ، وهو يهم بالنهوض :

ـ من أنت ، حتى تسخر على هذا النحو ؟!

ضرب الرجل سطح المنضدة براحته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اخفض صوتك ، واستمع إلىّ فقط .

لسبب ما ، لعله الخوف أو الرهبة ، أو هى الرغبة فى المعرفة ، عاد (طه) يجلس على مقعده ، ويحدِّق فى الرجل ، الذى تابع بنفس الصرامة :

ـ عندما تكشف قاعة الحكمة ، أسفل (أبى الهول) ، سيكون لذلك أقوى صدى ، فى الأوساط العالمية كلها .

غمغم (طه) فى توتر :

ـ لا يوجد شىء اسمه قاعة الحكمة .

تابع الرجل ، وكأنه حتى لم يسمعه :

ـ ستفوز بجائزة (نوبل) ؛ بسبب هذا الكشف العظيم .

قال (طه) فى عصبية :

ـ أأنت قارئ طالع أم ماذا ؟!

مرة أخرى ، تابع الرجل ، متجاهلًا تعليقات (طه) تمامًا :

ـ ستعثر داخلها على كنوز ، لم ترها ، أو تحلم بها حتى عين من قبل .. كنوز من الذهب والآثار ، وكنوز تفوقها ألف مرة من المعرفة .

غمغم (طه) :

ـ المعرفة ؟!

مال الرجل نحوه ، مواصلًا :

ـ معرفة تركها قوم ، سبقوا الفراعنة بقرون ، وتفوق معرفتهم كل ما عرفناه فى تاريخنا المكتوب ، حتى هذه اللحظة .

حدَّق (طه) فى وجهه لحظات ، وشعر بخفقان فى قلبه ، وهو يتخيَّل كشفًا مثل هذا ، وتأثيره على العالم ، ثم لم يلبث أن انتفض ، وكأنه يفيق من حلم طويل ، وهتف :

ـ ما هذه الخزعبلات ؟!

خيِّل إليه أنه يتحدَّث من طرف واحد ، فلقد تابع الرجل ، وكأنه يرفض أن يقاطعه أحد :

ـ ستسجِّل كل ما ستجده من كنوز ومعرفة .

ثم مال نحوه فجأة ، وأشار بسبَّابته ، فى حزم صارم :

ـ ما عدا شيئًا واحدًا .

خفق قلب (طه) فى قوة ، وهو يهتف فى خفوت :

ـ كنت أعلم أنك تسعى خلف أثر ما .

وتراجع بمقعده خطوة ، وهو يتابع فى غضب :

ـ أنت مجرَّد لص آثار ، فى ثوب أنيق فحسب .

غمغم الرجل ، فى لهجة أقرب إلى السخرية ، منها إلى الصرامة :

ـ لص آثار ؟!

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ لم تفهم بعد .

صاح (طه) :

ـ ولن أفهم .

تطلَّع إليه الرجل طويلا ، بوجه خالٍ من الانفعال ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ سنترك هذا للزمن .

قالها بنفس اللهجة الواثقة ، التى يتحدث بها طوال الوقت ، ثم نهض ، مضيفًا فى حزم :

ـ حان الوقت لأنصرف .

هتف به (طه) :

ـ ما زالت لدى عشرات الأسئلة !

أولاه الرجل ظهره ، وابتعد عنه فى خطوات سريعة ، ولوّح بيده ، دون أن يلتفت إليه :

ـ أبقها للمرة القادمة .

تابعه الدكتور (طه) ، وهو يغمغم ، معقود الحاجبين :

ـ لن تكون هناك مرة قادمة ..

ولكنه كان مخطئًا فى قوله هذا ..

إلى حد كبير ..

* * *

* موسكو مارس ١٩٩٠م :

انهار (كورباكوف) تمامًا ، على ذلك المقعد المعدنى الثقيل ، الذى قيّده إليه (بوتشكى) ، وبدا صوته أشبه بالبكاء ، وهو يقول ، من وسط دموعه :

ـ أقسم إننى لم أخبره شيئًا .. هو كان يعلم كل شىء .

وضع الجنرال (إيفان) إحدى ساقيه فوق الأخرى ، وهو يقول فى برود :

ـ عملنا علّمنا الكثير يا (ألكسندر) .. هناك خونة ، يشعرون بخوف شديد، بعد ارتكاب خيانتهم ، حتى إنهم يأتون إلينا ، فى محاولة لتنقية ساحتهم .

وصمت لحظة ، قبل أن يستدرك فى قسوة :

ـ ولكننا نكشفهم .

بكى (كورباكوف) فى مرارة ، وهو يهتف :

ـ ما أخبرتكم به هو الحقيقة .. أقسم لك .

قاطعه بهدير ، يفيض بالصرامة والقسوة :

ـ كاذب .

ثم تابع ، مستعيدًا بروده :

ـ ما لا تعلمه ، هو أننا ، ومنذ عملك معنا ، وعلى الرغم من إخفاء هذا ، عن كل المحيطين بك ، أخضعناك لمراقبة صارمة ، طوال الأربع والعشرين ساعة .

ومال نحوه ، مكملًا فى قسوة :

ـ ولم يرصد أى من مراقبينا دخول أو خروج أى مخلوق ، من منزلك ، مطلقًا .

حمل صوت (كورباكوف) ، على الرغم من شحوبه ، كل الذهول ، وهو يغمغم :

ـ ولكنه كان هناك .

مطّ الجنرال (إيفان) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ هذا لن يجدى .

أشار إلى (بوتشكى) ، فهوى على فك (كورباكوف) بثلاث لكمات شديدة العنف ، دار معها رأس هذا الأخير ، وانهار أكثر ، والجنرال يسأله فى برود :

ـ بم أخبرت الأمريكيين ؟!

هتف فى انهيار :

ـ أقسم إننى ..

قاطعته لكمتان قويتان من (بوتشكى) ، فدارت عيناه فى محجريهما ، وأدرك أنه مهما قال أو فعل ، لن يصدّقه أحد ..

ولهذا ، لم يجد أمامه سوى حل أخير ..

فقدان الوعى ..

أو بمعنى أدق ، التظاهر بفقدان الوعى ..

وهذا ما فعله ..

رفع (بوتشكى) وجهه فى قسوة ، ثم أفلته ، فسقط على صدره ، مما جعل العملاق الروسى يغمغم بلا مشاعر :

ـ فقد الوعى .

زفر الجنرال (إيفان) ، وهو يقول :

ـ أنا أيضًا أصابنى الإرهاق .

ثم نهض ، مكملًا :

ـ امنحه ربع الساعة ، ثم أيقظه ، وواصل التعامل معه ، حتى أحتسى كوبًا من القهوة .

غمغم (بوتشكى) :

ـ هل تسمح لى بذلك أيضًا يا جنرال ؟!

أدار الجنرال عينيه فيما حوله ، قبل أن يجيب :

ـ لا بأس .. المكان محصن جيدًا ، وهو مقيَّد فى إحكام ، ولا سبيل لديه للفرار .. لا بأس .

انتظر (كورباكوف) ، حتى غادر الاثنان الزنزانة الرطبة ، ثم بصق بعض الدماء من فمه ، مغمغمًا :

ـ يا للوحوش !

كان واثقًا تمامًا ، من أن الزنزانة قد خلت ، بعد خروج الرجلين ، لهذا فقد

كاد قلبه يتوقَّف ، عندما سطع ضوء أزرق باهت داخلها ، لثانية أو أقل ، قبل أن ينبعث صوت هادئ من ركنها ، خلف ظهره :

ـ إنهم كذلك بالفعل .

تعرَّف الصوت ، واللهجة الأمريكية على الفور ، فارتجف جسده كله ، وهو يغمغم فى رعب :

ـ أنت ؟!

شعر بأنفاس الرجل خلفه ، وسمع صوته الهادئ يقول :

ـ اطمئن .. قلت لك إننى صديق .

ارتجف جسده وصوته ، وهو يهتف فى خفوت :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

اشتم دخان حريق صغير ، ارتبط بصوت كالفحيح ، والصوت الهادئ يجيب :

ـ بنفس الوسيلة ، التى دخلت بها مكتبك .

وقبل أن يلقى (كورباكوف) سؤالًا آخر ، تحرَّر معصماه فجأة ، من تلك القيود المعدنية ، التى كانت تكبلهما خلف ظهره ، والرجل يتابع :

ـ علينا أن نسرع .. سيعود الوحشان بعد قليل .

نهض فى صعوبة ، والتفت يتطلَّع إلى ذلك الرجل طويل القامة ، أبيض البشرة ، وإلى ثيابه شديدة الأناقة ، التى لا تتناسب أبدًا ، مع زنزانة قذرة رطبة كهذه .. ودارت عيناه فى المكان ، فى مزيج من التوتر والخوف ، قبل أن يكرِّر :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

ابتسم الرجل ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ـ كما سنخرج .

كان (بوتشكى) يقبض بكفيه ، على كوب القهوة الساخن ، الذى تتصاعد منه إلى أنفه رائحة منعشة ، وهو يتجه إلى تلك الزنزانة عندما رأى وميضًا أزرق باهتًا ينبعث من نافذتها المعدنية الصغيرة ، ثم يتلاشى فى لحظة ، فاندفع إليها ، ودسّ مفتاحه فى بابها المعدنى ، ودفعه بقدمه ، ثم اتسعت عيناه فى ذهول ، وسقط كوب القهوة من يده ، متحطمًا على أرضيتها الرطبة ..

فالقاعة كانت هناك ..

وكذلك المقعد المعدنى ..

والقيود المعدنية محترقة الأطراف ..

ولكن لم يكن هناك أثر لـ (ألكسندر كورباكوف) ..

أدنى أثر ! ..

* * *

* القاهرة يوليو ٢٠٢٢م :

« رائع .. »

هتف بها الدكتور (محمد على) ، داخل المعمل الخاص للدكتور (طارق سليمان) ، الذى التقط نفسًا عميقًا من الهواء ، وهو يمسك ساعة عادية فى يده ، قائلًا :

ـ إنها تعمل .

قال الدكتور (محمد) فى حماس :

ـ إنه انتصار علمى رائع .. ألم أخبرك من قبل ، أنك ستنال جائزة (نوبل) فى العلوم يومًا ؟

غمغم (طارق) ، بابتسامة كبيرة :

ـ إنها مجرَّد البداية فحسب .

أشار الدكتور (محمد) بيده :

ـ سأقول لك نفس ما قاله (نيل أرمسترونج)(*) ، عندما خطا أول خطوة ، على سطح القمر .. إنها خطوة صغيرة لإنسان ، ولكنها خطوة عظيمة للبشرية .

هزَّ (طارق) كتفيه :

ـ فى هذا أنت على حق .

(*) نيل أرمسترونج : (٥ أغسطس ١٩٣٠م ـ ٢٥ أغسطس ٢٠١٢م) ، أول رائد فضاء أمريكى يمشى على سطح القمر ، حصل على درجة علمية فى هندسة الفضاء ، بالإضافة إلى عدة دكتوراهات فخرية من العديد من الجامعات ، حملته سفينة الفضاء (أبوللو ١١) إلى القمر ، مع زميليه (باز ألدرين) ، و(مايكل كولينتر) ، حيث هبطوا على سطح القمر فى الساعة الثامنة وسبع عشرة دقيقة وأربعين ثانية ، من الرابع والعشرين من يوليو ١٩٦٩م .

ثم لوَّح بالساعة ، متابعًا :

ـ تجربة اليوم وضعت البشرية على الخطوة الأولى ، للسفر عبر الزمن ... نقلنا ساعة ، بكل مكوناتها ، لسبع وأربعين دقيقة إلى المستقبل ، وما زالت تعمل بكل كفاءة ، وعقاربها تشير إلى أنها لم تتقدَّم سوى ثانية واحدة .

قال الدكتور (محمد) فى سعادة :

ـ هذا يعنى أنه ، بالنسبة إلينا ، مرَّت سبع وأربعين دقيقة ، وبالنسبة للساعة ، مرَّت ثانية واحدة ، أى أنها قفزت عبر الزمن ، دون حتى أن تدرى أنها قد فعلت .

أدهشته نبرة الأسى ، فى صوت (طارق) ، وهو يغمغم :

ـ يا للخسارة !!

ردَّد فى دهشة مستنكرة :

ـ خسارة ؟!

أجابه (طارق) متنهدًا :

ـ كم كنت أتمنى لو كانت حية ، حتى تصف لنا ما شعرت به ، وهى تقفز عبر الزمن .

تطلَّع إليه الدكتور (محمد) لحظات ، مدركًا شعوره كعالم ، ثم ربَّت على كتفه ، مغمغمًا :

ـ أنت قلتها .. إنها البداية فحسب .

أومأ (طارق) برأسه إيجابًا ، ثم اعتدل فجأة ، هاتفًا :

ـ ربما توجد وسيلة لهذا .

سأله فى اهتمام :

ـ كيف ؟! .. لا تقل لى إنك سترسل شيئًا حيًّا بهذه السرعة .

أجابه فى حماس :

ـ ليس شيئًا حيًّا ، ولكنه سيخبرنا ما نريد .

سأله فى اهتمام مشوب بالفضول :

ـ شىء مثل ماذا ؟!

التقط (طارق) مكعبًا صغيرًا ، من على سطح مكتبه ، وهو يجيب :

ـ شىء مثل هذا .

وخفق قلب الدكتور (محمد) ..

فالفكرة ، باستخدام هذا الشىء ، بدت معقولة ..

وممكنة ..

ومثيرة ..

للغاية ..

* * *

* كاليفورنيا إبريل ٢٠١٩م :

حل مستشار الرئيس الأمريكي باقة قميصه ، وأرخى زر عنقه في توتر ، وهو يغمغم في عصبية :

ـ لا بد من وجود تفسير علمي .. الأشياء لا تختفي هكذا ببساطة .

غمغم الجنرال (جاكوب) :

ـ والأشخاص أيضًا .

وصمت لحظة ، ثم استطرد في توتر :

ـ هل وصلك ما يتناقله الرجال هنا ؟!

التفت إليه المستشار ، وهو يسأله في عصبية :

ـ ماذا يتناقلون ؟!

مال نحوه ، هامسًا :

ـ إن هذا ليس فعلًا أرضيًا .

تراجع المستشار العلمي ، في حركة حادة :

ـ ليس أرضيًا ؟!

وافقه (جاكوب) بإشارة من رأسه ، وتابع هامسًا :

ـ يرددون أنه من فعل كائنات فضائية .

غمغم المستشار العلمي في خفوت :

ـ كائنات فضائية ؟!

لم يرق للجنرال (جاكوب) ، كون المستشار يكتفي بترديد المقطع الأخير دومًا ، من كل ما يطرحه عليه ، فاعتدل ، قائلًا في عصبية :

ـ لماذا لم يدهشك هذا ؟!

تطلّع إليه المستشار لحظة ، ثم أشاح بوجهه :

- ولماذا يدهشنى ؟!

قال (جاكوب) فى صرامة متوترة :

- لو سمعته أنا لأدهشنى .

صمت المستشار العلمى بضع لحظات ، ثم غمغم ، وهو ما زال يشيح بوجهه عنه :

- هذا شأنك .

أمسك (جاكوب) ذراعه وجذبه ؛ ليجبره على الالتفات إليه ، وهو يقول فى صرامة ، حملت الكثير من الحدة :

- كنت تتوقّع هذا .. أليس كذلك ؟!

نظر إليه المستشار العلمى ، دون أن يجيب ، فكرّر (جاكوب) فى حدة :

- كنت تتوقع هذا ؟

أجابه فى توتر :

- لا بد وأن نضع كل الاحتمالات فى الاعتبار .

مال (جاكوب) نحوه ، قائلا :

- لو أنها ممكنة .

عاد المستشار العلمى يشيح بوجهه ، مغمغمًا :

- كل شىء ممكن .

تطلّع إليه (جاكوب) لحظات ، فى صمت يموج بالغيظ والغضب ، قبل أن يقول :

ـ حادثة (روزويل) * كانت حقيقية .. أليس كذلك ؟!

غمغم المستشار العلمى :

ـ هراء .

قال (جاكوب) فى إصرار :

ـ كانت حقيقية .. والدى كان ممن عاصروها ، ولقد وصف لنا ما رآه .

التفت إليه المستشار العلمى فى صرامة :

ـ لماذا لم تفصح عن هذا إذن ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لأنه كان فى السجن ، عندما روى لنا هذا ، ولقد تصوَّرت آنذاك ، أنها هلوسة شيخ يحتضر .

صمت لحظة ، ثم أضاف فى حدة :

ـ حتى هذه اللحظة .

انعقد حاجبا المستشار العلمى ، دون أى تعليق ، فتابع (جاكوب) فى قوة :

ـ عندما وجدتك تتحاشى الحديث عن الأمر .

(*) حادثة (روزويل) : هى واقعة حدثت فى الثامن من يوليو ١٩٤٧م ، حيث سقط جسم ما ، فى مزرعة عوائلية ، بالقرب من مقاطعة (شافيز) ، فى ولاية (نيومكسيكو) ، وتردَّد أيامها أنه طبق طائر أو جسم فضائى مجهول ، وعلى الرغم من إصرار القوات الجوية الأمريكية ، إلى يومنا هذا أنه كان مجرَّد بالون طقس تقليدى ، إلا أن الإجراءات التى اتبعت حينذاك ، من محاصرة الجيش للمنطقة ، ومنع الاقتراب منها ، وحظر النشر ، ونقل كل الحطام إلى مخزن سرى خاص ، كلها تعارضت مع كونها مجرَّد حادثة عادية ، ومعظم رؤساء أمريكا وعدوا عند انتخابهم بكشف السر ، ولكن أحدًا منهم لم يفعل بعد انتخابه .

استدار إليه المستشار العلمى فى صرامة :

- لأننى لا أحب إضاعة الأمر .. فى هراء .

تجاهل (جاكوب) تعليقه ، وهو يكمل فى صلابة :

- كان يؤكد لنا ، أن التكنولوجيا ، التى تم العثور عليها داخل ذلك الجسم الفضائى ، كانت السر فى الطفرة الرهيبة فى التكنولوجيا ، التى ظهرت فى (أمريكا) ، وجعلتنا نربح سباق الفضاء من (السوفيت)(*)

بدا المستشار شديد الصرامة ، وهو يقول :

- هل يمكننا التركيز على ما يواجهنا بالفعل ، بدلًا من ترديد شائعات ، لا قيمة لها ؟!

تنهّد (جاكوب) ، مغمغمًا :

- إننا هنا منذ ثلاثة أشهر ، ولم نحرز أى تقدُّم بعد .

لم يكد ينطقها ، حتى اندفع أحد أفراد الفريق العلمى من داخل القاعة هاتفًا فى انفعال :

- سيدى .. لا بد وأن ترى هذا فورًا .

أسلوبه ولهجته ، أوحيا بأنه هناك أمر مفاجئ وخطير .. خطير للغاية .

* * *



(*) هذا يتردّد بالفعل فى كثير من الأوساط العلمية .

الفصل السابع

* **القاهرة يوليو ٢٠٢٥م :**

عشرات الأوراق ، وضعها جيش المراسلين ، على مكتب (إبراهيم) ، الذى تطلّع إليها كلها ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ألم يكن من الأسهل والأسرع ، إرسالها عبر شبكة الإنترنت ؟!

غمغم أحد المراسلين فى ارتباك :

ـ طلبت رؤيتها ، فور الحصول عليها يا أستاذ (إبراهيم) !!

تذكّر (إبراهيم) أن هذا ما طلبه منهم بالفعل ، إلا أن كبرياءه وعناده ، جعلاه يقول فى صرامة :

ـ كان يمكن تصويرها ، وإرسالها عبر شبكة الإنترنت .

صمت الجميع ، ولم يحاول أحدهم التعليق ، فى حين قلّب هو الأوراق أمامه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لست أجد اسم ذلك الباشا المزعوم ، فى أى من هذه الأوراق !!

غمغم أحدهم فى حذر :

ـ هذا ما أردنا إثباته يا أستاذ (إبراهيم) .. هذه الأوراق تحوى أسماء كل من أُنعم عليهم بلقب باشا ، من عام ١٩٣٥م ، وحتى عام ١٩٥٢م ، وكلها لا تحمل اسم (نجيب باشا شوكت) هذا .

قال آخر :

ـ وهذه كل وثائق ملكية ذلك المنزل ، من يوم بنائه ، وحتى اليوم ، وكلها أيضًا لا تحوى الاسم .

راجع الأوراق فى سرعة ، وثالث يضيف فى قلق :

ـ لم نعثر على أى أثر له ، فى كل الوثائق القديمة ، باستثناء عقد شراء أرض (مدينة نصر) ، عام ١٩٤٥م .

وقلب كفيه فى حيرة ، وهو يضيف :

ـ الرجل يبدو وكأنه لم يولد قط .

تراجع (إبراهيم) فى مقعده ، يتطلّع إليهم بنظرة خاوية ، فتمتم رابع :

ـ لم تكن هناك وثائق ، أو بطاقات هوية ، قبل بداية خمسينات القرن العشرين .. ولهذا كانوا يعتمدون على منصب (شيخ الحارة) ، الذى يثبت هوية الأشخاص(*) .

انعقد حاجبا (إبراهيم) ، وهو يتمتم :

ـ الوثائق !!

ثم اعتدل فجأة ، وقال فى حماس :

ـ ربما لم تكن هناك بطاقات هوية ، ولكن حتمًا كانت توجد سجلات .

غمغم أحدهم :

ـ حقًّا ؟!

(*) حقيقة .

هتف (إبراهيم) ، بنفس الحماس :

ـ بالتأكيد .. مواليد ووفيات .. هذا موجود ، من أيام الحملة الفرنسية(*) .

ثم ضرب براحته ، على كومة الأوراق أمامه ، مستطردًا :

ـ إذا لم نعثر على اسمه ، فى سجلات المواليد والوفيات ، فهذا قد يعنى أنه بالفعل لم يولد أبدًا .

تبادل المراسلون نظرة دهشة ، وغمغم أحدهم :

ـ من أين جاء إذن ؟!

أشار (إبراهيم) إلى رأسه ، مجيبًا فى انفعال :

ـ من خيال صاحب القضية .

تبادل المراسلون نظرة أخرى ، ثم تنحنح أحدهم ، وقال :

ـ ولكن النائب العام ، يؤكِّد أن عقد البيع صحيح .

قال فى حزم :

ـ ولكن صاحب العقد لن يكون صحيحًا ، لو أنه لا يمتلك شهادة ميلاد أو وفاة .

تمتم مراسل ، يقف فى الخلف :

ـ وهل سيقنع الوزير بهذا ؟!

وهنا انعقد حاجبا (إبراهيم) فى شدة ، دون أن يجيب ..

ففى رأسه ، اتخذ السؤال صيغة جديدة ..

هل يمكن أن يجدى كل ما يفعله ، ويحارب من أجله ؟! ..

هل ؟! ..

* * *

(*) حقيقة تاريخية .

*** القطب الشمالى ، فبراير ٢٠٣٤م :**

نفث عالم الأحياء الأمريكى ، من أصل إيطالى (جاك ليوناردو) ، بخار الثلج البارد ، عبر شفتيه ، وهو يرسم دائرة حول منطقة ما فى القطب الشمالى ، قائلًا لزميله (روبرت) :

ـ ينبغى أن نبدأ البحث هنا .

أدار (روبرت) عينيه فيما حوله ، وابتسم مغمغمًا :

ـ لست أرى من حولنا ، سوى جليد يمتد إلى آفاق البصر ، فما الذى يميِّز هذه البقعة بالذات ؟!

صمت (جاك) لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يهزَّ رأسه مجيبًا :

ـ هل تصدقنى لو أخبرتك ، أننى لست أدرى ؟!

قال فى دهشة :

ـ هل أتيت بنا إلى هنا ، دون أية خطة مسبقة ؟!

صمت (جاك) لحظات أخرى ، ثم قال فى توتر :

ـ ربما ترانى مجنونًا ، ولكن أحدهم أكَّد لى ، أننى سأعثر فى تلك البقعة ، على كشف سيغيِّر حياتى كلها .. وربما تاريخ كوكب الأرض أيضًا .

تطلَّع إليه (روبرت) ، وهو يغمغم مستنكرًا :

ـ أحدهم أخبرك ؟!

زفر فى قوة ، وفرك كفيه ، على الرغم من ارتدائه قفازين سميكين ، وهو يستطرد فى عصبية :

ـ أتعشم أن يكون هذا الشخص عالمًا بارزًا فى الأحياء ، أو أحد كبار علماء الجيولوجيا على الأقل(*) .

هزّ (جاك) رأسه نفيًا ، وهو يغمغم فى خفوت :

ـ ليس هذا أو ذاك .

ثم رفع عينيه إلى (روبرت) ، مستطردًا :

ـ إنه رجل أعمال .

كاد (روبرت) يقفز من مكانه ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ رجل أعمال ؟!

أجابه (جاك) فى حدة :

ـ من برأيك موّل هذه البعثة ؟!

هتف (روبرت) :

ـ ليست مسألة تمويل فحسب .. لا بد من وجود دلائل علمية ، ووثائق دقيقة ، و ..

قاطعه (جاك) فى عصبية :

ـ سيدفع لكل منا مليونى دولار .

(*) الجيولوجيا : هو العلم الذى يبحث فى خصائص الأرض ، من حيث تركيبها وكيفية تكوينها ، والحوادث التى حدثت خلال نشأتها ، واستقرارها من عدمه ، والتغيرات المستمرة عليها ، وعلى كتلتها الصلبة ، والزلازل ، والبراكين ، ونواتجها ، كما تبحث الجيولوجيا الحيوية فى ظهور كائنات الأرض ، وتطوُّرها ، عبر مئات الملايين من السنين ، وظهور الإنسان على سطح الأرض وتطوُّره .

بُهت (روبرت) للرقم ، وحدَّق فى (جاك) لحظات ، قبل أن يتمتم :

ـ مليونان ؟!

كان هناك صراع عنيف ، يدور فى أعماقه ، ما بين كرامته العلمية ، وشغف البشر الطبيعى بالثروة ، مما جعله يلوذ بالصمت لدقيقة أو يزيد ، ثم تهدأ حدته ، وهو يغمغم :

ـ وكل كشف سينسب إلينا ؟!

أشار (جاك) بكفه :

ـ بالتأكيد .

غمغم (روبرت) :

ـ حتى لو عدنا من هنا بقطع جليدية فحسب ؟!

أومأ (جاك) برأسه إيجابًا ، فالتقط (روبرت) نفسًا عميقًا ، أطلقه فى زفرة حارة ، كثَّفت الكثير من البخار أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ فلنبدأ البحث عن كشف القرن هذا إذن .

نطقها فى سخرية ، دون أن يدرى ، أن ما سيعثران عليه ، سيغيِّر وجه العالم وتاريخه ، بالفعل ..

سيغيره تمامًا ..

* * *

*** القاهرة أغسطس ٢٠٢٣م :**

داخل ذلك الناقوس الزجاجى الكبير ، المتصل بعشرات الأجهزة ، وسط معمل الدكتور (طارق) ، ومض ضوء أزرق باهت ، أضاء المكان كله ، لجزء من الثانية ، ثم تلاشى ، واختفى معه ذلك الضفدع الكبير ، الموضوع فى مركز الناقوس ..

ولثوانٍ ، خيَّم على المكان صمت شديد ، قبل أن يغمغم الدكتور (محمد) فى قلق :

ـ أتعتقد أنه سيفعلها ؟!

هزَّ (طارق) رأسه نفيًا ، مغمغمًا فى قلق :

ـ لست أدرى !

صمت لحظة ، ثم استدرك :

ـ إنها أوَّل محاولة لنقل كائن حى عبر الزمن .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ كل تجارب نقل المواد الصلبة نجحت ، مهما بلغت دقة تركيباتها .

أشار (طارق) بيده :

ـ الخلايا الحية أمرها يختلف .

تنهَّد الدكتور (محمد) ، وقال :

ـ لقد راجعت كل البيانات ، وأعتقد أنه من الممكن أن ينجح هذا .

اتجه (طارق) نحو شاشة الكمبيوتر الكبيرة ، وهو يقول :

ـ أتمنى .

ضغط زر التشغيل ، ليبدأ فيلم قديم بالظهور على الشاشة ، مما جذب إليه الدكتور (محمد) ، وهو يغمغم :

ـ ذلك الفيلم القديم !!

كان فيلمًا لتجربة قديمة ، عندما وضع (طارق) كاميرا صغيرة ، داخل الناقوس الناقل ؛ ليرى ماذا سيحدث ، عندما تنتقل عبر الزمن . .

والواقع أن الكاميرا لم تسجل أى شىء غير مألوف ..

فباستثناء ذلك الضوء الأزرق الباهت ، لم يحدث شىء ..

أى شىء ..

على الرغم من أن الكاميرا قد اختفت من الناقوس ، لقرابة نصف الساعة ، إلا أنها لم تسجِّل شيئًا ..

بالنسبة إليها ، هو ذلك الوميض الأزرق الباهت فحسب ..

لقد وثبت نصف الساعة إلى المستقبل ، فى لمحة واحدة ..

والواقع أن هذا أدهش الرجلين تمامًا ..

كانا يتوقعان حتمًا ما هو أكثر من هذا ..

عاصفة ضوئية ..

اهتزاز عنيف ..

تموُّج هوائى ..

ولكن كل هذا لم يحدث ..

فقط ضوء أزرق باهت ، يستمر لنصف ثانية فحسب ..

وبعد دراسة طويلة للفيلم ، وجد (طارق) دليلًا على القفزة الزمنية ..

انحراف مفاجئ لزاوية الضوء ، الساقط على النافذة ، والذى يبدو فى الركن البعيد من المشهد ..

كان دليلا على حركة الشمس ، خلال الوقت الخارجى ، الذى استغرقته الرحلة الزمنية ..

أوَّل دليل علمى ، على السفر عبر الزمن ..

ولعدة أشهر ، كرَّر هو والدكتور (محمد) تجربتهما ، على عدة أجسام صلبة ، مختلفة التكوين والحجم ..

معدات يدوية ..

ساعات رقمية ..

أجهزة إلكترونية معقدة ..

وكل التجارب نجحت ..

إلى حد مبهر ..

ثم حان وقت الانتقال إلى الخطوة التالية ..

نقل الأحياء عبر الزمن ..

أجريا كل حساباتهما منذ البداية ..

وابتاعا أجهزة أحدث ..

وأضافا مولدًا كهربيًّا قويًّا إلى المعمل ..

ودرسا صفات العشرات من الكائنات الحية البسيطة ..

وأخيرًا اختارا ذلك الضفدع ..

أوَّل مسافر عبر الزمن ..

استعاد (طارق) كل هذه الذكريات ، وهو يتابع ذلك الفيلم القديم ، قبل أن ينظر إلى ساعته ، مغمغمًا فى توتر :

ـ المفترض أن يصل (دودى) الآن ..

كان (دودى) هو الاسم ، الذى أطلقاه على ذلك الضفدع الكبير ، ولقد اندفعا معًا نحو الناقوس ، وخفق قلباهما فى قوة ، وهما يحدقان فى مركزه ..

ثم سطع ذلك الضوء الأزرق الباهت ..

واختفى !!

وشهق الدكتور (محمد) ، وهو يتراجع فى حركة حادة إلى الخلف ..

أما (طارق) ، فقد أغلق عينيه فى قوة ، وضمَّ شفتيه فى عنف ...

ففى مركز الناقوس ، كان (دودى) قد عاد ..

ولكن ليس كضفدع ..

فقط كتلة من اللحم والدم ، ممتزجة ببعضها البعض !!

وكان هذا يعنى أن تجربة نقل الأحياء ، عبر منحنى الزمن ، قد فشلت .. بلا أدنى شك ..

* * *

*** كاليفورنيا إبريل ٢٠١٩م :**

فى تعاقب مخيف ، وأمام العيون الذاهلة ، راح الليل والنهار يتعاقبان فى سرعة مذهلة ، داخل تلك القاعة ..

وفى تعاقب مرعب ، راحت أجهزة ومعدات الفريق العلمى تظهر وتختفى ، وكأنها تومض وتنطفئ ..

وفى ارتياع ، أسرع أفراد الفريق العلمى يفرون من القاعة ؛ خشية أن يصيبهم ما أصاب تلك الأجهزة ..

وعند مدخل القاعة ، وقف الجنرال (جاكوب) والمستشار العلمى يرتجفان فى ذهول ..

« أى عمل شيطانى هذا ؟! .. »

هتف بها الجنرال (جاكوب) ، فى حين غمغم المستشار العلمى فى ذهول :

ـ مستحيل !!

ثم جذب الجنرال ، وهو يهتف :

ـ دعنا نبتعد عن هنا .

تراجع (جاكوب) ، وهو يواصل الهتاف :

ـ ماذا يحدث ؟! .. ماذا يحدث ؟!

عقب قوله ، أضاءت القاعة كلها بضوء أزرق باهت ، انبعث من ركنها الأقصى .. ثم تلاشت كل الأجهزة والمعدات دفعة واحدة ..

وفى ذهول ، تراجع الكل ، وبعضهم يشهق ، وبعضهم يصرخ ، وقلة منهم ألجم الذهول ألسنتهم وحناجرهم ، فلاذوا بالصمت التام ، وهم يتراجعون ..

ويتراجعون ..

ويتراجعون ..

« هذا فعلهم .. » ..

هتف (جاكوب) بالعبارة ، وجسده كله ينتفض ، قبل أن يستدرك فى حدة :

ـ إنها كائنات غير أرضية .

صاح به المستشار فى صرامة :

ـ اصمت .

ولكنه راح يهتف :

ـ ألا يمكنك الاعتراف بالحقيقة ؟! .. هذا إما فعل شيطانى ، أو تكنولوجيا عالم آخر .

صرخ فيه المستشار مرة أخرى :

ـ اصمت .. قلت لك اصمت .

ثم أمسكه من ياقته ، مستطردًا :

ـ ألا تدرك تأثير ذعرك على الرجال .

كان رجال الفريق العلمى يتراجعون بالفعل ، والرعب يحفر علاماته على وجوههم فى وضوح ، فحدَّق فيهم (جاكوب) ، وهو ممتقع الوجه ، ثم عاد ببصره إلى المستشار ، قائلًا فى عصبية :

ـ أنت مثلى ، لا تؤمن بفوق الطبيعيات .. أليس كذلك ؟!

هزَّ المستشار رأسه فى عنف :

ـ لست أؤمن ، إلا بكل ما هو علمى .

أشار الجنرال نحو القاعة فى عصبية :

ـ وما حدث هنا ليس شيطانيًّا .

هتف المستشار :

ـ بالتأكيد .

مال بوجهه نحوه ، وهو يقول فى حدة :

ـ إذن فهو من صنع كائنات ، من كوكب آخر .

نظر المستشار إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى حدة :

ـ أو سلاح جديد .

بدا وكأن الجنرال الأمريكى ، لم يضع هذا الاحتمال فى حساباته قط ، حتى إنه حدَّق فى وجه المستشار ، مغمغمًا :

ـ سلاح جديد ؟!

أجابه المستشار ، وهو يفلت ياقته من قبضته فى حدة :

ـ سلاح لم نعرفه حتى الآن .

ثم شدَّ قامته ، مضيفًا :

ـ ونريد أن نعرفه .

صمت الجنرال لحظات مصدومًا ، ثم أدار عينيه إلى القاعة ، متسائلًا فى عصبية :

ـ أين ذهبت كل الأجهزة والمعدات إذن ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لست أدرى .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ حتى الآن .

ازدرد الجنرال لعابه فى صعوبة ، وقال :

ـ وماذا تتوقع أن يحدث ، قبل أن تكشف الأمر ؟!

هزَّ المستشار رأسه فى قوة :

ـ لست أدرى .

وصمت لحظة أخرى ، ثم استدرك فى حزم :

ـ بعد .

زفر الجنرال (جاكوب) ، وهو يشير إلى القاعة مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ لو أننى فى مكانك ؛ لاكتفيت بنسف هذه القاعة ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، سطعت القاعة كلها ، بذلك الضوء الأزرق الباهت ، لجزء من الثانية ..

ثم دوى الانفجار ..

انفجار عنيف ..

للغاية ..

* * *

*** مكان ما .. وزمان ما :**

لدقيقة كاملة ، لم يستطع الدكتور (رياض) أن ينبس ببنت شفة ..

المعلومة ، التى قالها ذلك الغامض صدمته ..

بل وانتزعت قلبه من صدره ..

وبمنتهى العنف ..

انتحر ؟! ..

كيف يمكن هذا ؟! ..

ولو أنه قد فعل ، فماذا يعنى وجوده هنا ؟! ..

الموتى لا يعودون أبدًا للحياة ! ..

مستحيل !! ..

مستحيل أن تعود الروح إلى الجسد ، بعد خروجها منه ..

هكذا تعلم ، منذ طفولته ..

وهكذا نشأ ..

الكاهن فى الكنيسة أخبره ، أنه لا حياة مادية بعد الموت ..

فقط حياة الروح ..

وإلى الأبد ..

فكيف يؤكِّد له هذا الرجل العجيب ، أنه قد مات ؟!

كيف ؟! . .

كيف ؟! . .

استرجع لوهلة ذلك المشهد العجيب ، الذى رآه عبر النافذة . .

إنه مشهد لم يره بشرى من قبل . .

هكذا قال الغامض . .

ربما نسى أن يضيف كلمة حى . .

ما من بشر (حى) رأى هذا المشهد !!

أيعنى هذا أنه ميت ؟! . .

« ماذا أصابك يا دكتور (رياض) ؟! . . » . .

ألقى عليه الغامض السؤال ، فانتزعه من أفكاره ، وجعله يلتفت إليه ، ويسأله :

ـ أنحن فى البرزخ ؟!

اعتدل الرجل يسأله فى حيرة :

ـ أى برزخ ؟!

أجابه فى توتر :

ـ تلك الحالة الوسيطة ، بين الحياة والموت .

بدت الدهشة لحظة على الرجل ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك تكثر من مشاهدة أفلام السينما يا رجل .

هزَّ (رياض) رأسه فى عنف :

ـ لست من هواة مشاهدة أفلام الخيال العلمى .

مطَّ الرجل شفتيه ، مغمغمًا :

ـ ولا أنا .

ثم هزّ رأسه ، مستدركًا :

ـ معظم أفلام الخيال العلمى ، أو ما تطلقون عليه اسم الخيال العلمى ، أمر سخيف للغاية .

تمتم (رياض) متوترًا :

ـ سخيف ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .. فى الأفلام ، التى تتصورونها علمية ، تصوّرون مخلوقات الكواكب الأخرى ، مثل الحشرات أو الوحوش .. لا يسأل أحدكم نفسه أبدًا ، لو أنهم كذلك ، فكيف تطوّروا ، إلى حد الوصول إليكم ؟! لماذا لا تتصورون أنهم يمكن أن يكونوا مثلكم ؟! .

ارتجف (رياض) ، وهو يغمغم :

ـ مثلنا ؟! .. استخدامك صيغة المخاطب ، قد يوحى بأنك لست ..

قاطعه الغامض فى صرامة :

ـ لا تذهب بأفكارك بعيدًا يا رجل .

غمغم (رياض) عاجزًا عن منع جسده من الارتجاف :

ـ لماذا استخدمت صيغة المخاطب إذن ؟!

تراجع الرجل فى مقعده ، وتطلّع إليه طويلا ، قبل أن يعتدل ، ويتجاهل السؤال تمامًا :

ـ ألن تترك هذه المجادلات الجانبية ، وتبدأ فى متابعة عملك ؟

سأله (رياض) فى عصبية :

ـ هل يهمك عملى ؟!

هزَّ كتفيه فى هدوء :

ـ بالطبع .. تطوير الخلية البشرية ، وزيادة مناعتها ، وقدرتها على مقاومة التغيرات الخارجية ، لهو أرقى عمل ، يمكن أن يفيد البشرية .

تساءل (رياض) :

ـ وهل سأتمّه ؟!

سأله الرجل فى اهتمام :

ـ ولم لا ؟.. سأمنحك أحدث المعدات ، وكل الإمكانات العلمية والمادية الممكنة ، و ...

قاطعه (رياض) فى عصبية :

ـ ولكنك تقول : إننى سأنتحر .

ابتسم الرجل فى هدوء :

ـ كان هذا قبل أن أنقذك .

هزَّ (رياض) رأسه فى قوة :

ـ أنا عاجز عن استيعاب هذه السلسلة المعقَّدة من المعلومات .

ابتسم الرجل :

ـ لا تحاول التفكير فيها إذن .

هتف (رياض) :

ـ كيف ؟!

انفرجت شفتا الرجل ، وكأنه يهم بقول شىء ما ، ثم نظر فى ساعته الكبيرة فجأة ، وهتف :

_ لقد أضعت وقتى .. كان ينبغى أن أعود ..

قالها ، وانطلق فجأة نحو جدار ، مصمت ، ليست به أبواب ..

أما ما حدث بعد ذلك ، فقد صدم الدكتور (رياض) فى شدة ..

فقد كان أمرًا مذهلا ..

جدًّا .

* * *



الفصل الثامن

* **القطب الشمالى مايو ٢٠٣٤م :**

بكل التوتر ، نفث (روبـرت) دخـان سيجارته ، قبل أن يقول فى شىء من الحدة :

ـ وماذا بعد ؟!

رفـع (جاك) عينيــه عن الأوراق ، والتفت إليـه بنظـرة متسائلـة ، جعلتــه يستطرد فى حدة أكثر :

ـ إننا هنا منذ فبراير ، وحفرنا خمسة أمتار فى الجليد ، دون أن يقودنا هذا إلى شىء .. أى شىء !!

تطلَّع إليه (جاك) لحظات فى صمت ، ثم تنهَّد فى عصبية ، قائلًا :

ـ أحيانًا يحتاج الأمر ، إلى الغوص أعمق من هذا .

ألقى (روبرت) سيجارته ، على طول يده ، وهو يهتف :

ـ ولكننى سئمت .

وأحكم ياقة معطف الفراء حول عنقه ، مضيفًا فى حزم عصبى :

ـ سأحزم أمتعتى ، وأعود إلى (فلوريدا) .

هبَّ (جاك) يهتف به :

ـ انتظر .

اندفع (روبرت) خارج المكان ، فأسرع (جاك) يلحق به ، فى توتر شديد :

ـ اسمع يا (روبرت) ، سأعقد معك اتفاقًا .

لوَّح (روبرت) بكفه ، وهو يواصل اندفاعه نحو الخيمة الرئيسية :

ـ لا اتفاقات .

هتف به (جاك) :

ـ سأرحل معك .

توقَّف (روبرت) ، والتفت إليه فى حدة :

ـ لن تفعل .. لقد أصابك الهوس ، بسبب قول رجل أحمق .

رفع (جاك) كفه ، قائلًا فى عصبية :

ـ أعترف .

قوله جعل (روبرت) يهدأ قليلا ، ويسأله :

ـ هل سترحل معى حقًّا ؟

أجابه (جاك) فى يأس :

ـ امنحنى يومًا واحدًا فقط ؛ لتنظيم الأمور ، وبعدها سنرحل معًا .

تطلَّع إليه (روبرت) لحظات ، ثم اتجه نحوه :

ـ هل تعد ؟!

مدَّ (جاك) يده إليه :

ـ أعد .

تصافحا فى حرارة ، ثم قال (روبرت) فى حزم :

ـ سأعد حقيبتى .

لم يكد ينطقها ، حتى اندفع رئيس العمال نحوهما ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ عثرنا على شىء .

التفت إليه (جاك) فى لهفة ، فى حين غمغم (روبرت) فى توتر :

ـ ليس ماموثًا آخر بالتأكيد(*) .

راح (جاك) يعدو فى حماس ، نحو المكان ، الذى أشار إليه رئيس العمال ، فى حين تبعه (روبرت) فى خطوات سريعة ، وعندما بلغ تلك الحفرة العميقة ، التى يقف عندها رئيس العمال ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فى ذلك الشىء ، الذى كشفه الحفر ..

فقد كان شيئًا ، لا يمكن أن يخطر ببال أى باحث ..

بالمرة !! ..

* * *

* القاهرة يوليو ٢٠٢٥م :

زفر النائب العام فى ضجر ، وهو يتطلَّع إلى (إبراهيم) ، قائلًا :

ـ لماذا تتعامل مع الأمر ، وكأنه مسألة شخصية يا أستاذ (إبراهيم) ؟!

بدت الدهشة ، على ملامح وصوت (إبراهيم) ، وهو يغمغم :

ـ أحاول مساعدة العدالة فحسب .

مال النائب العام نحوه فى صرامة :

ـ فى أى شأن ؟! .. لقد اتسع لك صدر سيادة وزير العدل ، حتى نفد صبره ، واليوم تلقى بثقلك كله على مكتبى ، دون أن تقدم دليلًا واحدًا ، يمكن أن يفيد القضية .

(*) الماموث : نوع من الثدييات المنقرضة ، من فصيلة الفيلة ، وهو أقدم جد معروف للفيل الحالى وأكثر ضخامة بمرتين ، عاش فى آسيا الوسطى، قبل مليون سنة ، ويبلغ ارتفاعه فى المتوسط حوالى أربعة أمتار ونصف ، وفى عام ١٧٩٨م تم العثور على ماموث كامل سليم محفوظ تحت طبقات من الجليد فى (سيبيريا) ، وهو أحد الحيوانات المنقرضة ، التى عاصرها الإنسان الأوَّل .

اعتدل (إبراهيم) فى توتر :

ـ ولكننى أثبت لسيادتك ، أنه لا توجد شهادة ميلاد رسمية ، للمدعو (نجيب باشا خورشيد) هذا ، وبالتالى ..

قاطعه النائب العام بزمجرة عصبية :

ـ كفى يا أستاذ (إبراهيم) .

تراجع (إبراهيم) فى مقعده مصدومًا ، فى حين تابع النائب العام فى غضب :

ـ العدالة فى (مصر) لن تنجر إلى منافسة صحفية سخيفة كهذه ، حتى ولو حاولت التظاهر بمظهر الغيور على صالح البلاد .

غمغم (إبراهيم) فى عصبية :

ـ ولكننى كذلك بالفعل .

صاح فيه :

ـ منذ متى ؟! .. تاريخك كله هجوم ، على كل وزارات الدولة .. لماذا فجأة صرت المدافع عنها ؟! .

ارتفع صوت (إبراهيم) :

ـ أهاجم الوزارات ؛ لأنها تفتقر إلى العقل والمنطق فى قراراتها .

صاح فيه النائب العام :

ـ من أى منظور ؟! .. ما معلوماتك عما يدور داخل أية وزارة ؟! .. ماذا تعرف عن خططها المستقبلية ؟! .

اتخذت لهجة (إبراهيم) نمطًا عدائيًا ، وهو يهتف :

ـ المفترض ، وفقًا للديمقراطية والشفافية ، أن يكون الشعب كله ، على علم ودراية بهذا .

احتقن وجه النائب العام ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، ثم ضغط زرًّا على سطح مكتبه ، فدخل مدير مكتبه على الفور :

ـ أمرك يا سيادة النائب .

حمل صوت النائب العام كل الصرامة :

ـ أعد قرارًا بمنع النشر ، فى قضية أرض (مدينة نصر) ، وسأوقّعه على الفور .

شعر (إبراهيم) بصدمة ، جعلته يهتف مستنكرًا :

ـ منع النشر ؟!

لوّح النائب العام بسبّابته فى وجهه ، قائلًا بكل صرامة :

ـ لو أنك نشرت كلمة ، بل حرفًا واحدًا عن هذا الأمر ، سأوجه لك اتهامًا رسميًا ، بمحاولة التأثير على القضاء ، فى قضية منظورة أمام المحاكم .

حدّق فيه (إبراهيم) غير مصدق ، وخاصة عندما أضاف الرجل فى حدة :

ـ انتهت الزيارة .

ظلّ وجه (إبراهيم) محتقنًا ، وهو يقود سيارته ، عائدًا إلى الجريدة ، فسأله المراسل المصاحب له فى حذر :

ـ ليست أوّل قضية ، يمنع النشر فيها يا أستاذ (إبراهيم) .

غمغم (إبراهيم) فى حنق :

ـ منع النشر فحسب .

غمغم المراسل فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه (إبراهيم) فى حزم :

ـ أنت ترى مثلى ، أن ذلك الرجل ، الذى ظهر فى مكتبى فجأة ؛ ليعطينا صورة من ذلك العقد الغريب ، محاط بكثير من الغموض .. أليس كذلك ؟!

أجابه المراسل فى حذر :

ـ بلى .

اكتسب صوت (إبراهيم) الكثير من الصرامة والحزم ، وهو يقول :

ـ النائب العام أصدر قرارًا بمنع النشر ، وليس بمنع البحث .

شعر المراسل بانفعال يسرى فى كيانه ، وهو يغمغم :

ـ هل تعنى ..

قاطعه ، قبل أن يكمل سؤاله :

ـ لن ننشر ، ولكننا سنواصل البحث ، حتى نعثر على دليل .. أى دليل

تردَّد المراسل لحظات ، ثم تمتم :

ـ وهل سنجده ؟!

وانعقد حاجبا (إبراهيم) فى شدة ..

فسؤال المراسل هو لبُّ الأمر كله ..

هل يمكن أن يجد دليلا ، على ما يشعر به ؟! ..

هل ؟! ..

* * *

* موسكو إبريل ١٩٩٠م :

لأوَّل مرة فى حياته ، شعر (بوتشكى) بالكثير من التوتر والعصبية ، وهو يجلس مع الجنرال (إيفان) ، أمام الجنرال (تورجنيف) ، مدير الكى جى بى ، الذى بدا شديد الصرامة ، كثير الغضب ، وهو يضرب مكتبه براحته ، صائحًا :

ـ كفى .. لا أريد سماع المزيد من هذا الهراء .

احتبست الكلمات فى حلق (بوتشكى) ، فى حين ازدرد الجنرال (إيفان) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول بحلق جاف :

ـ ولكن هذا ما حدث يا جنرال .

هتف (تورجنيف) فى حدة :

ـ اختفى ؟! .. هكذا بكل بساطة ؟! .. يا للسخافة !! .. أكبر خبير كيميائى ، فى الاتحاد السوفيتى كله ، والمشرف الأوَّل على أخطر مشاريعنا الحربية ، يختفى من داخل زنزانة مغلقة ، دون أن يراه أحد ؟! .. لو جاء إليك أكبر ضباطك يقول كهذا يا (إيفان) ، هل كنت لتصدقه ؟!

صمت (إيفان) لحظات ، قبل أن يهزَّ رأسه ، متمتمًا :

ـ كلا .

تراجع الجنرال (تورجنيف) ، قائلًا فى صرامة :

ـ كيف تريد منى تصديقه إذن ؟!

شحب صوت (إيفان) كثيرًا ، وهو يتمتم فى انكسار :

ـ لأن هذا ما حدث .

هنا فقط تمتم (بوتشكى) فى يأس :

ـ نقسم لك إنه ما حدث يا جنرال .

نقل الجنرال (تورجنيف) نظره بينهما فى توتر ..

لقد عمل منذ كان فى العشرين من عمره فى المخابرات السوفيتية ..

واكتسب خبرة كبيرة ، مع مرور الوقت ..

وهذه الخبرة ، هى ما يضعه فى الحيرة ، التى يشعر بها ، والتى تسبَّبت فى عصبيته الزائدة هذه ..

إنهما لا يكذبان ..

خبرته تؤكِّد له هذا ..

ولكن عقله يرفضه ..

كلاهما يؤكِّد أن (ألكسندر كورباكوف) كان داخل زنزانة مغلقة ، ليس لها سوى مدخل واحد ، له مفتاح واحد ..

وكان مقيدًا بالسلاسل ، على مقعد معدنى ثقيل ، مثبَّت فى أرضية الزنزانة الصغيرة ..

ولقد تركه الرجلان وحده ، لعشر دقائق فقط ..

وعندما عاد (بوتشكى) كانت الزنزانة فارغة ..

والقيود المعدنية ذائبة ..

ولا أثر لـ (كورباكوف) ..

فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

وحتى لو كان الرجلان يكذبان ، أو أحدهما على الأقل يفعل ، فكيف كان من الممكن أن يفرَّ (كورباكوف) ؟! ..

الزنزانة كانت داخل ممر منفرد ، له مخرج واحد ، يقف عنده أربعة رجال مسلحون ..

ومخرجه يقود إلى ساحة كبيرة خالية ، لا يمكن أن تعبرها ذبابة ، دون أن ينكشف أمرها ..

وهناك برجان يكشفان الساحة ..

وأضواء كاشفة ..

وكاميرات مراقبة ..

وكل شىء يقول : إن (كورباكوف) دخل المكان ..

ولكنه لم يخرج منه ..

أبدًا ..

وعلى الرغم مما فى هذا من غرابة وغموض ، فليس أمام أى مخلوق ، سوى الاقتناع ، بأن (كورباكوف) لم يغادر زنزانته ، على أى نحو معروف ..

وأنه قد اختفى !!!

« كان هناك ضوء ما .. »

قالها (بوتشكى) فجأة ، فانتزع (تورجنيف) من أفكاره ، وجعله يدير عينيه إليه فى اهتمام :

ــ أى ضوء ؟!

اندفع (بوتشكى) :

ـ ضوء أزرق باهت ، سطع لثانية ثم اختفى .. لقد لمحته ، عبر النافذة الصغيرة للزنزانة .

انعقد حاجبا (تورجنيف) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ ضوء أزرق باهت ؟!

بسرعة ، راحت الأمور تترابط فى ذهنه ..

(كورباكوف) يؤكِّد أن رجل مخابرات أمريكى ، قد فاجأه فى منزله ..

رجل لم يرصد المراقبون دخوله أو خروجه ..

ثم يختفى (كورباكوف) بعدها من زنزانة مغلقة ..

دون أن يرصده أحد أيضًا !! ..

الأمر إذن أخطر مما يتصوَّر بكثير ..

بكثير جدًّا ..

« يمكنكما أن تذهبا .. » ..

رفع (تورجنيف) رأسه ، يقولها فى حزم ، فانتفض الرجلان ، وبدت عليهما الدهشة و(بوتشكى) يغمغم فى انفعال :

ـ هل نعود لعملنا يا جنرال ؟!

أجابه (تورجنيف) فى صرامة :

ـ حتى يتم استدعاؤكما .

نهض الرجلان فى سرعة ، وكأنهما يخشيان أن يتراجع فى قوله ، وهتف الجنرال (إيفان) ، وهو يندفع مع (بوتشكى) نحو الباب :

ـ أشكرك يا جنرال .. أشكرك كثيرًا .

تابعهما (تورجنيف) وهما يغادران حجرة مكتبه ، ثم التقط هاتفه الداخلى الخاص ، وقال لمدير مكتبه :

ـ هل تذكر ذلك العالم ، الذى عرض علينا مشروعًا علميًّا عجيبًا ، منذ عدة أشهر ؟! .. ذلك المشروع ، الذى رفضناه ، لأنه بدا أشبه بالخيال العلمى .. نعم .. (شيرنوبروف) .. أريده فى مكتبى ، فى أقرب وقت ممكن ..

أنهى المحادثة ، واستند بذقنه على قبضتيه ، وهو يشعر أن فصلًا جديدًا قد بدأت كتابته فى تاريخ المخابرات ، بين الأمريكيين والسوفيت ..

الحرب الباردة ..

كالثلج ..

* * *

* القاهرة مارس ٢٠٢٤م :

فرك الدكتور (طارق) كفيه ، فى توتر شديد ، وهو يتطلع فى لهفة ، إلى ذلك الناقوس الزجاجى ، الذى يتوسَّط معمله ..

عمل عدة أشهر يتوقف على هذه اللحظة ..

(دودى ٢) ..

هو الاسم ، الذى أطلقه على هذه التجربة ..

تجربة نقل ضفدع آخر ، عبر منحنى الزمن ..

لقد أجرى آلاف الحسابات ، هو وأستاذه الدكتور (محمد) ؛ للبحث عن سبب انهيار الخلايا الحية ، عند عبورها الزمنى ..

آلة التصوير أثبتت أن الانتقال يتم فى سلاسة ..

ولكن التجربة العملية أثبتت العكس ..

الأجسام الصلبة ، مهما بلغ تعقيدها ، تعبر الزمن فى يسر ، وتظل قادرة على العمل ..

ولكن الخلايا الحية لا تحتمل هذا ..

« إننا نحتاج إلى خبير ، فى علم الأحياء .. »

غمغم بها (طارق) ، فالتفت إليه الدكتور (محمد) قائلًا :

ـ تقول هذا الآن ؟!

زفر (طارق) :

ـ ربما لأننى أشعر بقلق أكثر الآن .

هزَّ الدكتور (محمد) كتفيه :

ـ لقد قمنا بكل ما نستطيع .

قال (طارق) فى توتر :

ـ ولكننا نفتقد إلى معارف أساسية ، تخص سلوك الخلايا الحية .

اتجه إليه الدكتور (محمد) ، وربَّت على كتفه مهدئًا :

ـ من الواضح أنك قلق للغاية .

وافقه (طارق) بإشارة من رأسه ، وغمغم :

ـ أكثر مما تتصوَّر .

ثم أغلق عينيه ، مستطردًا :

ـ لا أستطيع محو صورة كومة اللحم والدم ، التى كانت ضفدعًا ، قبل أن نرسله عبر الزمن .

زفر الدكتور (محمد) بدوره :

ـ ولا أنا .

ثم استدرك :

ـ ولكن تاريخ العلم يذخر بالمحاولات الفاشلة ، التى كان لها الفضل ، فى الوصول إلى نتائج عظيمة ، أفادت البشرية(*) .

مطّ (طارق) شفتيه :

ـ أتفق معك ، فى أن التجربة الفاشلة ، تقود إلى معرفة أسباب الفشل ، وكما يقال : إذا عرفت كيف فشلت ، تعرف كيف تنجح .

لوّح الدكتور (محمد) بسبّابته :

ـ أرأيت ؟

مع نطقها ، ارتفع رنين منبه بدائى ، فسرت فى جسد الدكتور (طارق) قشعريرة باردة ، وهو يقول :

ـ استعد .

تعلق بصر الرجلين بالناقوس الزجاجى ، وكل الأسلاك والأنابيب المتصلة به ..

وراح قلباهما يخفقان ..

ويخفقان ..

ثم سطع ذلك البريق الأزرق الباهت داخل الناقوس الزجاجى ..

سطع ، ثم خبا على الفور ..

وانتفض جسد الرجلين ..

ففى مركز الناقوس ، لم تكن هناك كومة من اللحم والدم كالسابق ..

(*) حقيقة علمية تاريخية .

بل كان الضفدع (دودى) الثانى يستقر هناك ..

بكامل جسده ..

وبكامل هيئته ..

وبكل حماسته ، هتف الدكتور (محمد) :

ـ لقد عاد .. لقد عاد .

وربَّت على كتف (طارق) فى سعادة ، مستطردًا :

ـ نجحنا أيها العبقرى .

ولكن (طارق) لم يشاركه حماسته هذه ..

فقد انشغل عقله كله بذلك الضفدع ..

صحيح أنه عاد سليمًا ، على عكس سلفه ..

ولكنه لا يتحرَّك ..

وفى قلق شديد ، رفع (طارق) الناقوس الزجاجى ، ودفع (دودى) الثانى بسبَّابته ..

وكما كان يخشى ، لم يتحرك الضفدع ..

صحيح أنه عاد سليمًا جسديًا ، ولكنه افتقر إلى أهم شىء ، فى كل كائن حى ..

الحياة نفسها ..

ولثوانٍ ، منعت غصة كبيرة حلق الدكتور (طارق) من الكلام ..

ثم ، وأخيرًا ، غمغم فى صوت متحشرج :

ـ نحتاج إلى أحيائى .

واعتصر الأسى قلب الدكتور (محمد) ..

ليس لأن التجربة الثانية قد فشلت ، ولكن لأن كلمات الدكتور (طارق) قد بدت وكأنها تقطر دمعًا ..

أو دمًا ..

***

*** واشنطن مايو ٢٠١٩م :**

« لا يمكننى استبعاد هذا الاحتمال .. » ..

نطقها المستشار العلمى للرئيس الأمريكى ، وهو يتحسّس ضمادات وجهه ، بعدما أصابه ، من شظايا انفجار تلك القاعة ، ثم أدار بصره ، ما بين الرئيس ، وعدد من الجنرالات ، الذين يتطلعون إليه ، قبل أن يستطرد :

ـ ربما كان للأمر علاقة بكائنات فضائية بالفعل .

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكى ، وعقد أصابعه أمام وجهه ، وهو يغمغم :

ـ من الخطر القفز إلى هذا القول يا بروفيسير .

أشار المستشار العلمى بكفه ، قائلًا فى توتر :

ـ لا يوجد تفسير علمى آخر ، يا سيدى الرئيس .

أشار الرئيس إلى أحد جنرالاته ، وهو يقول :

ـ هناك من يخالفك الرأى .

التفت المستشار إلى ذلك الجنرال ، الذى أشار إليه الرئيس ، والذى تنحنح ، قائلا :

ـ نعمل الآن على سلاح جديد ، قد يحمل تفسيرًا .

تمتم المستشار ، على نحو آلى :

ـ أى سلاح ؟!

أجابه الجنرال فى سرعة :

ـ مدفع يخلق قوة كهرومغناطيسية ، يمكنها إرباك كل الأجهزة الإلكترونية ، وموجّهات الأسلحة الرقمية .

غمغم المستشار :

ـ وماذا عن البوصلة ؟!

أجابه الجنرال :

ـ إنها تربكها أيضًا ؛ لوجود خلل فى المجال الكهرومغناطيسى .

اعتدل المستشار يواجهه :

ـ وهل يمكن أن يحدث هذا داخل القاعة ، ولا يحدث خارجها ؟!

تبادل الجنرالات عدة نظرات ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ كلا .

التقط المستشار العلمى نفسًا عميقًا ، ثم عاد يواجه الرئيس ، قائلًا فى حزم :

ـ نحن أمام أمر يختلف إذن .

اندفع جنرال آخر ، يقول :

ـ كل ما نخشاه ، أن يكون الروس قد توصلوا إلى سلاح مماثل .

أضاف آخر فى قلق :

ـ وأكثر دقة .

سأله المستشار العلمى فى سرعة :

ـ وكيف أطلقوا سلاحهم هذا ؟!

تبادل الجنرالات نظرة أخرى ، قبل أن يتمتم أحدهم :

ـ لم نرصد فى الواقع أية أقمار لهم فى سماء الولايات المتحدة كلها .

نقل الرئيس نظره بينهم ، وقال فى صرامة :

ـ أظننا نتحرَّك فى اتجاه خاطئ أيها السادة .

لم يعلق أحد الجنرالات على عبارته ، فتابع :

ـ من الواضح أن الأمر ليس عسكريًّا .

ثم مال على سطح مكتبه ، مضيفًا فى صرامة أكبر :

ـ وهو لا يفسِّر اختفاء الدكتور (رياض يوسف) ومعمله .

غمغم أحد الجنرالات :

ـ أنت على حق يا سيادة الرئيس .

همَّ الرئيس بقول شىء ما ، لولا أن ارتفع رنين هاتف خاص على سطح مكتبه ..

هاتف له لون مميَّز ، جعل الرئيس يلتقطه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ ماذا هناك ؟!

اشرأب الجنرالات كلهم بأعناقهم ، يتطلَّعون إلى الرئيس فى قلق ..

فاحتقان وجهه ، وتوتر ملامحه الشديدة ، جعل الجنرالات ، والمستشار العلمى ، يدركون أن الرئيس الأمريكى يتلقى خبرًا شديد الخطورة ..

إلى حد مخيف ..

للغاية .

***



الفصل التاسع

* القاهرة ، سبتمبر ٢٠٢٣م :

تطلَّع ذلك الرجل فى هدوء ، إلى الدكتور (محمد) ، الذى يجلس أمامه ، فى بهو ذلك الفندق الكبير ، والذى بدا شديد الحرج ، وهو يغمغم :

ـ فى الواقع ، لقد أنفقنا مبلغ التمويل كله ، فى عدد من التجارب ، التى لم تثمر ، كما كنا نتوقع .

قال الرجل بنفس الهدوء :

ـ تريدون مزيدًا من التمويل إذن ؟!

تردَّد الدكتور (محمد) لحظات ، ثم تمتم :

ـ بالتأكيد ، ولكن المشكلة التى تواجهنا تفوق هذا .

صمت الرجل لحظات ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ الخلايا الحية ؟!

انتفض الدكتور (محمد) ، وهو يحدق فيه ذاهلا ، ولسانه يتلعثم فى حلقه :

ـ ولكن كيف ؟! كيف ؟!

قاطعه الرجل :

ـ كنت أتوقع هذا منذ البداية .

تمالك الدكتور (محمد) نفسه ، وحاول الاقتناع بهذا التفسير ، وهو يغمغم :

ـ نحتاج إلى عالم أحياء .

أخرج الرجل دفتر شيكاته ، وهو يقول فى حزم :

ـ كلا .. كل ما تحتاجونه الآن ، هو مزيد من المال .

كتب رقمًا ذات ستة أصفار على الشيك ، وناوله للدكتور (محمد) ، الذى التقطه فى حركة تلقائية ، وهو يتمتم :

ـ كل مال الدنيا ، لن يغنينا عن وجود عالم أحيائى ؛ فمشكلتنا تتعلّق بقدرة الخلايا الحية ، على عبور الزمن .

بدا الرجل هادئًا ، وكأنه كان يتوقّع هذا ، وأخرج من جيبه شريحة رقمية صغيرة ، ناولها للدكتور (محمد) :

ـ مع وجود هذه ، لن تحتاجا إلى أى شخص إضافى .

أمسك الدكتور (محمد) الشريحة ، وتطلّع إليها فى قلق ، مغمغمًا :

ـ وماذا يوجد بها ؟!

أجابه وهو ينهض :

ـ كل ما تحتاجانه .

« أهذا كل ما قاله ؟! .. »

قالها الدكتور (طارق) ، وهو يلتقط الشريحة الصغيرة ، من الدكتور (محمد) ، الذى أومأ برأسه ، قائلًا :

ـ لسنا ندرى بعد ما الذى تحويه ؟!

وصمت لحظة ، ثم أردف فى توتر :

ـ ولقد منحنا شيكًا جديدًا .

اتجه (طارق) نحو الكمبيوتر ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. كنا فى أشد الحاجة إليه !

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه ، مغمغمًا :

ـ ولقد منحنا إياه بكل البساطة السابقة !!

سأله (طارق) ، وهو يدس الشريحة فى المدخل الخاص بها فى الكمبيوتر :

ـ ولماذا يوحى صوتك بالتوتر ؟!

لوَّح بيده مجيبًا :

ـ رجال الأعمال لا يلقون أو ينفقون أموالهم بهذه البساطة !!

غمغم (طارق) ، وهو يضغط أزرار الكمبيوتر :

ـ تقول : إنه شديد الاهتمام بالعلم .

هزَّ كتفيه ، وحمل صوته المزيد من التوتر ، وهو يقول :

ـ ولكننى بحثت عن اسمه فى سجلات كل جمعيات رجال الأعمال ، على مستوى الجمهورية ، ولم أعثر عليه .

ضغط زرًّا أخيرًا ، وهو يغمغم ، وانتباهه كله مركَّز على شاشة الكمبيوتر :

ـ وماذا يعنينا ؟!

قالها ، ثم انطلقت من حلقه شهقة ، جعلت الدكتور (محمد) يهتف :

ـ ماذا هناك ؟!

ظل (طارق) صامتًا لحظات ، محدقًا فى شاشة الكمبيوتر ، حتى كرر عليه الدكتور (محمد) سؤاله ، فى لهجة أكثر انزعاجًا ، فأشار إلى الشاشة ، قائلًا :

ـ إنها أبحاث الدكتور (رياض يوسف) ، حول الخلايا الحية .

هتف الدكتور (محمد) ، وهو يلقى نظرة على الشاشة فى شغف :

ـ حقًّا !!

ثم استدرك فى توتر :

ـ ولكنهم يقولون إنه قد اختفى ، على نحو غامض ، فى عام ٢٠١٩م .

تطلَّع (طارق) إلى الشاشة لحظات أخرى ، قبل أن يتمتم :

ـ مستحيل !!

غمغم الدكتور (محمد) فى توتر :

ـ ولكننى أذكر هذا جيدًا .. لقد كان يعمل فى معمله الخاص فى (كاليفورنيا) عندما ...

قاطعه (طارق) مرة أخرى فى حزم :

ـ مستحيل !!

تراجع الدكتور (محمد) ، مغمغمًا فى ضيق :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

أجابه بكل الحزم :

ـ أوّلا ؛ لأن أبحاثه لم تكتمل منذ اختفائه ، ولم ينشر ، ولو جزءًا منها فى أية مجلة علمية ، حتى آخر إصدار حظيت به .

غمغم الدكتور (محمد) فى اهتمام :

ـ وثانيًا ؟!

أشار إلى سطر ، فى نهاية الأبحاث قائلا ، فى توتر حقيقى :

ـ هذا .

نظر الدكتور (محمد) إلى حيث يشير ، ثم ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ..

أو قل فى ذهول ..

أو ما هو أكثر ..

* * *

*** موسكو ، إبريل ١٩٩٠م :**

حاول (تشيرنوبروف) أن يبدو هادئًا ، وهو يستمع إلى الجنرال (تورجنيف) ، إلا أن أصابعه راحت تدير خصلة من خصلات شعره فى عصبية ، حتى انتهى الجنرال من قول ما لديه ، فغمغم :

ـ اختفى؟! .. ومع وميض أزرق ؟! .. هل يمكن أن يكون ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، على نحو جعل (تورجنيف) يسأله فى شغف :

ـ يكون ماذا ؟!

على الرغم من أن (تشيرنوبروف) كان يتطلّع إليه مباشرة ، إلا أنه بدا شاردًا تمامًا بضع لحظات ، قبل أن يعتدل ، قائلًا :

ـ كيف يمكن أن يختفى شخص بالغ من زنزانة مغلقة ، دون أن يترك خلفه أثرًا ؟!

تراجع (تورجنيف) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا ما استدعيتك لتجيب عليه !!

بدا (تشيرنوبروف) حماسيًّا :

ـ إنه لم يتخذ المسار العادى .

انعقد حاجبا (تورجنيف) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لو أنك تقصد وجود نفق سرى ، فقد ...

أدهشه أن (تشيرنوبروف) قد تابع ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد عبر من خلال مسار آخر .

قال الجنرال فى صرامة قاسية :

ـ قلت لك : إنه لا توجد أية أنفاق .

مرة أخرى تابع (تشيرنوبروف) فى حماس ، متجاوزًا كل ما يسمعه :

ـ مسار يستحيل تتبعه .

اكتفى (تورجنيف) بانعقادة حاجبين صارمة ، فى حين بدا (تشيرنوبروف) أشبه بمن احتسى زجاجة فودكا كاملة ، وهو يلوِّح بيده :

ـ مسار عبر الزمان والمكان .

غمغم الجنرال :

ـ مسار ماذا ؟!

اشتعل (تشيرنوبروف) حماسًا ، وهو يلوِّح بذراعيه كلتيهما :

ـ قفزة عبر الزمكان .. التطبيق العلمى لنظرية (أينشتاين) حول البعد الزمنى .

اعتدل (تورجنيف) ، يقول فى عصبية :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟!

تضاعف حماس (تشيرنوبروف) ، وهو يجيب :

ـ أقول : إن ما حدث هو طفرة علمية مدهشة ، ولو أنه سلاح أمريكى ، فعلينا أن نحصل عليه ، قبل أن ينهار عالمنا كله .

كلمتا (سلاح) و(أمريكى) ، أطلقتا رجفة قوية فى جسد الجنرال السوفيتى ، وجعلتاه ينتبه بكل حواسه :

ـ أى سلاح ؟!

لم يحاول (تشيرنوبروف) حتى السيطرة على انفعالاته ، وهو يهتف :

ـ السفر عبر الزمان والمكان .

فغر الجنرال (تورجنيف) فاه ، مغمغمًا فى ذهول :

ـ ماذا ؟!

ثم انتفض جسده كله فى حنق :

ـ أى حديث أحمق هذا ؟! .. لا وجود لشىء اسمه السفر عبر الزمن ، اللهم إلا فى روايات الخيال العلمى .

استند (تشيرنوبروف) براحتيه على سطح المكتب ، وهو يقول :

ـ نظريًا ، هو أمر ممكن ، ولكن إنتاجه مسألة علم وإرادة ، والكثير جدًا من التمويل .

تراجع (تورجنيف) فى بطء ، أمام حماس (تشيرنوبروف) ، والثقة التى يتحدث بها ، وهو يغمغم :

ـ الاقتصاد الأمريكى قوى ، والصناعات لديهم متطوِّرة .

أضاف (تشيرنوبروف) فى انفعال :

ـ ولو توصل إليه الأمريكيون ، فبقاؤنا كله معرَّض للخطر .

تمتم (تورجنيف) ، وقلبه يخفق فى قوة :

ـ بقاؤنا ؟!

التقط (تشيرنوبروف) نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة ثائرة نفسه ، قبل أن يقول :

ـ تصوَّر يا جنرال ، لو أن أحدهم استطاع العودة فى الزمن ، إلى ما قبل ثورة ١٩١٧م(*) ؟! .. أو حتى قبل مولد (أدولف هتلر)(**) مثلًا ؟! .. هل كان تاريخنا سيبقى ، كما نعرفه الآن ؟!

خفق قلب الجنرال أكثر ، عندما أدار الأمر فى رأسه ، وغمغم ، وعقله يكاد يشتعل :

ـ أى شخص ، يمتلك القدرة ، على العودة إلى الماضى ، يمكنه إحباط الثورة ، أو تحذير (هتلر) ، أو حتى قتله ، قبل أن يولد .

قال (تشيرنوبروف) فى انفعال :

ـ وهل سيكون لنا وجود حينئذ ؟!

صمت الجنرال لحظات ، وهو يتطلَّع إليه فى قلق ، قبل أن يغمغم :

ـ ولكن التاريخ لم يتغيَّر ، وهذا يعنى ..

قاطعه (تشيرنوبروف) فى حماسة :

ـ ومن أدراك ؟!

حدَّق فيه ، مغمغمًا فى قلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

(*) الثورة البلشفية ، أو ثورة أكتوبر : كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية ، قادها البلاشفة ، بقيادة (فلاديمير لينين) ، وقائد الجيش الأحمر (ليون تروتسكى) وكامل الحزب البلشفى والجماهير العمالية ، بناء على أفكار (كارل ماركس) .. تلك الثورة أسفرت عن قيام الاتحاد السوفيتى .

(**) أدولف هتلر : (٢٠ إبريل ١٨٨٩ ـ ٣٠ إبريل ١٩٤٥م) ، سياسى ألمانى نازى ولد فى (النمسا) ، وكان زعيم ومؤسس حزب العمال الألمانى الاشتراكى الوطنى (الحزب النازى) .. حكم (ألمانيا) بين (١٩٣٣ـ ١٩٤٥م) ، وحمل لقب (الفوهرر) ، وعلى الرغم من كل ما قيل عنه ، فهو يعتبر من بين مائة شخص ، كان لهم كبير الأثر فى تاريخ البشرية فى القرن العشرين .

أجابه فى حماس :

ـ أعنى أنه لو كان هناك من غيَّر التاريخ ، فلن ندرى عن ذلك شيئًا ؛ لأننا عندئذ لن نجرى أية مقارنة ، إذ سيكون ما نحياه هو التاريخ ، الذى ولدنا لنجده ، بغض النظر عن أية أمور أخرى .

كان من العسير ، على جنرال عسكرى ، أن يستوعب هذا ، لذا فقد التقط الجنرال (تورجنيف) نفسًا عميقًا ، واعتدل يسأل :

ـ هل يمكنك صنع سلاح جبار كهذا ؟!

بسرعة وحماس ، أجابه (تشيرنوبروف) :

ـ لو أنه لدى التمويل الكافى .

سحب الجنرال ورقة من على سطح مكتبه ، وقال فى صرامة ، وهو يخط عليها كلماته :

ـ يمكنك أن تبدأ إذن .

وخفق قلب (تشيرنوبروف) ..

بكل قوة ..

* * *

*** الجيزة إبريل ٢٠١٩م :**

لم يشعر الدكتور (طه عبد الودود) بالدهشة فى حياته ، مثلما شعر بها ، وهو يحدِّق فى وجه ذلك الرجل الطويل الأبيض بالغ الأناقة والهدوء ، الذى يقف عند عتبة بابه ، مع ابتسامة شاحبة :

ـ هل فاجأتك زيارتى يا دكتور (طه) ؟!

عجز (طه) عن النطق لحظات ، ثم لم يلبث أن قال فى عصبية :

ـ من أين علمت عنوان منزلى ؟!

أجابه فى برود :

ـ أهذا كل ما يهمك ؟!

كرر (طه) فى حدة :

ـ كيف عرفته ؟!

أشار الرجل بيده إلى الداخل ، مغمغمًا :

ـ ألن تدعونى للدخول ؟!

هتف به (طه) :

ـ كلا .

كانت يمكن أن تصدم مشاعر أى إنسان ، ولكن الرجل ظل هادئًا :

ـ هذا أسلوب غير مضياف .

قال (طه) ، فى خشونة عصبية :

ـ لم أدعك إلى منزلى .

ثم استطرد فى حدة :

ـ ثم إن زوجتى وابنتى ليستا هنا .

اعتدل الرجل فى وقفته ، وهو يقول فى هدوء :

ـ إنهما فى حفل عيد مولد (سلوى) ، صديقة ابنتك .

اتسعت عينا الدكتور (طه) ، وخفق قلبه فى قوة :

ـ هل تراقبنا ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى بطء :

ـ لست بحاجة إلى هذا .

ثم دفع الباب بيده ، مستطردًا فى صرامة مفاجئة :

ـ ولا تنتظر عودتهما الليلة .

انتفض جسد (طه) فى عنف ، وهو يهتف ، وقد أوشك على الانقضاض على الرجل :

ـ ماذا فعلت بهما ، أيها الـ ...

أمسك الرجل معصمه ، فى قوة آلمته ، وهو يقول فى صرامة شديدة :

ـ أعتقد أنه من الأفضل ، أن تدعونى للجلوس .

على الرغم من كل ما يشعر به ، ومن البركان الذى يغلى فى كيانه ، أفسح (طه) له الطريق ، ورآه يدلف إلى المنزل فى هدوء ، ويتخذ مقعدًا وثيرًا ، فاتجه إليه ، وسأله فى عصبية :

ـ أين زوجتى وابنتى ؟!

أجابه الرجل فى صرامة :

ـ فى أمان .

جف حلق (طه) ، وهو يقول متحشرجًا :

ـ هل ...

قاطعه الرجل ، بكل صرامة :

ـ اجلس واستمع إلىَّ يا رجل .

جلس (طه) فى تلقائية ، وهو يكاد يبكى ، قلقًا وخوفًا على زوجته وابنته ، فى حين اتخذ الرجل جلسة مسترخية ، تتعارض مع صوته ولهجتة الصارمة ، وهو يقول :

ـ بعد الغد ، فى التاسعة صباحًا ، ستفتحون مدخل الممر إلى قاعة الحكمة .

ازدرد (طه) لعابه فى صعوبة ، مكررًا سؤاله :

ـ ماذا فعلت بزوجتى وابنتى ؟!

تابع الرجل ، متجاهلًا سؤاله تمامًا :

ـ سيكون هناك جمع غفير من الصحفيين والإعلاميين ، ولجنة من وزارة الآثار ، ومراسلون عالميون ، بالإضافة إلى الوزير بالطبع .

غمغم (طه) :

ـ وماذا عن زوجتى ، و ..

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ أخبرتك أنهما بخير .

ثم أضاف ، فى لهجة خاصة :

ـ حتى مساء الغد .

ارتجف قلب (طه) بين أضلاعه ، وهو يغمغم :

ـ ولماذا مساء الغد ؟!

مال الرجل نحوه ، قائلًا فى صرامة :

ـ لأنك ستقوم بفتح مدخل الممر ، مساء الغد .

اتسعت عينا (طه) عن آخريهما ، وعاد قلبه يخفق فى قوة ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا مستحيل !!

زمجر الرجل فى صرامة :

ـ لا شىء مستحيل .

ثم أضاف فى حزم :

ـ معًا يمكننا فتح الممر ، دون أن نترك ما يشير إلى هذا .

شعر (طه) بغصة فى حلقه ، وهو يغمغم :

ـ أنت لص آثار .

مطّ الرجل شفتيه ، وتراجع فى مقعده ، وهو يشير بسبّابته محذرًا :

ـ لقد قلتها مرة أخرى .. آثارك هذه لا تهمنى بالمرة .

سأله فى توتر :

ـ ماذا تريد من مقبرة أثرية إذن ؟!

تطلّع الرجل إليه لحظات ، ثم قال فى هدوء :

ـ ليست مقبرة .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ وكل ما أريده منها ، قارورة بحجم أسطوانة غاز البوتاجاز .

هتف (طه) ، فى صوت مختنق :

ـ وهذه .. أليست آثارًا ؟!

صمت الرجل لحظات أخرى ، وبدا وكأنه يزن كلماته جيدًا ، قبل أن ينطقها ، ثم قال أخيرًا :

ـ لا يمكنك اعتبارها آثارًا ؛ فهى لا تنتمى إلى العصر الذى تتصوّره .

حاول (طه) ازدراد لعابه ، عبر حلقه الجاف ، وهو يسأله :

ـ وماذا تحوى تلك القارورة ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ شىء لا يهم أى أثرى .

قال فى صعوبة :

ـ ما دام يوجد داخل مقبرة فرعونية ، فهو يهم أى أثرى .
زمجر الرجل فى شراسة :
ـ أخبرتك أنها ليست مقبرة .
هتف به :
ـ ومن أدراك ؟!
لم ترق له ابتسامة الرجل ، وهو يقول :
ـ أنا أعرف .
ثم ألقى نظرة على ساعته الكبيرة ، وهو ينهض ، قائلًا فى حزم :
ـ سنلتقى فى الواحدة صباحًا ، فى موقع البحث ، قبل ساعات من افتتاحه رسميًا .
هتف به (طه) فى شحوب :
ـ وماذا عن زوجتى وابنتى ؟!
أجابه الرجل فى حزم ، وهو يتجه نحو الباب :
ـ ستعود غدًا ، لتجدهما فى المنزل .
غمغم فى أسى :
ـ ستكون تجربة مؤلمة ، بالنسبة لهما .
توقف الرجل لحظة عند الباب ، ثم أجاب وهو يفتحه :
ـ اطمئن .. إنهما لن تدركا حتى ما حدث .
قالها ، وغادر المنزل ، تاركًا (طه) من خلفه يشتعل ..
وفى رأسه يلتهب ألف سؤال ..
ماذا كان يعنى بقوله الأخير هذا ؟! ..
ماذا ؟! ..
ماذا ؟! ..

***

* القطب الشمالى ، مايو ٢٠٣٤م :

« كيف يمكن أن يوجد شىء كهذا ، مدفونًا أسفل ستة أمتار من الجليد ؟! .. »

قالها (روبرت) فى توتر ، وهو يشعل سيجارته بأصابع مرتجفة ، فهزَّ (جاك) رأسه ، وغمغم محاولًا التماسك :

ـ كشفنا جزءًا ضئيلًا منه فحسب .

أجابه (روبرت) فى عصبية :

ـ جزء من الكريستال !! ..(*) وأسفل ستة أمتار ، من جليد تكوَّن منذ مئات ، وربما آلاف السنين !! .. هل تخدع نفسك أم ماذا ؟! .. ومن أعطاك إحداثيات هذا الموقع ؟!

حمل صوت (جاك) الكثير من التوتر ، وهو يغمغم :

ـ أخبرتك أنه رجل أعمال .

قال (روبرت) فى عصبية ، وهو ينفث دخان سيجارته :

ـ ومن أدراك أنه كذلك ؟!

لوَّح بكفه مجيبًا :

ـ لقد موَّل الحملة بعدة ملايين من الدولارات .

هتف (روبرت) :

ـ هذا لا يدل على شىء .. ماذا لو أنه تاجر مخدرات كولومبى مثلًا ؟!

(*) الكريستال : نوع من الزجاج ، يحتوى على مزيج من الصودا والرصاص ، وهو عبارة عن جسم صلب متجانس قد يكون طبيعيًا ، أو صناعيًا ، ويستخدم فى العديد من التطبيقات العلمية والعملية.

بدا (جاك) متشككًا ، وهو يغمغم :

ـ إنه ليس كذلك بالتأكيد .

قال (روبرت) فى عصبية :

ـ ومن أين أتيت بالتأكيد ؟!

تردَّد لحظات ، ثم غمغم :

ـ لا يبدو كذلك .

سأله فى حدة :

ـ كيف يبدو إذن ؟!

استغرق (جاك) لحظة من التردد ، قبل أن يغمغم :

ـ يبدو شرق أوسطيًّا .

ألقى (روبرت) سيجارته ، وهو يقول :

ـ وكيف حدَّد ذلك الشرق أوسطى موقع ذلك الشىء ؟!

تمتم (جاك) فى حيرة :

ـ لست أدرى !!

ثم تحوَّل صوته فجأة إلى العصبية ، وهو يستدرك :

ـ ثم إننا لم نكتشف سوى قمة ذلك الشىء فحسب .

صاح (روبرت) :

ـ وأى انطباع تركته هذه القمة فى نفسيتنا ؟!

اكتفى (جاك) بهز رأسه ، دون أن يجيب ، فتابع (روبرت) فى انفعال :

ـ إنه كريستال يا رجل .. كريستال .. جسم مصنوع من الكريستال ، من حقبة بعيدة !! .. هل يبدو لك هذا عاديًّا ؟!

غمغم متوترًا :

ـ كلا .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ ولكنه قد يكون كشف العمر .

انعقد حاجبا (روبرت) لحظات ، ثم غمغم فى عصبية :

ـ هذا مؤكَّد .

التقط (جاك) لمحة التفاؤل هذه ؛ ليقول فى حماس :

ـ علينا أن نكمل الحفر إذن .

غمغم (روبرت) ، وعصبيته تأبى أن تفارقه :

ـ الرجال لم يتوقفوا .

نهض (جاك) :

ـ ما الذى تتوقع أن يجدوه أيضًا ؟!

تمتم :

ـ من يدرى ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى دخل رئيس العمال الخيمة ، وبدا شاحبًا مرتجفًا بشدة ، وهو يغمغم :

ـ أيها السيدان .. لن تتخيلا أبدًا ما وجدناه .

والعجيب أنه كان على حق تمامًا ..

فمن المستحيل أن يتخيلا ما وجده العمال هناك ..

من المستحيل تمامًا !!!



***

الفصل العاشر

* **واشنطن ٢٠١٩م :**

حتى الرئيس الأمريكى ، لم يكن باستطاعته كبح توتره ، أو السيطرة على تلك الرجفة ، التى سرت فى أوصاله ، وهو يتطلَّع إلى الشاشة الكبيرة فى المكتب البيضاوى ، والتى تنقل له على الهواء مباشرة ، ذلك الحدث العجيب ، فى منطقة التجارب ، فى (كاليفورنيا) ..

وفى انفعال مماثل ، شاركه كل الحاضرين ، فى مكتبه ..

نائبه ..

وزير دفاعه ..

جنرالاته ..

ومستشاره العلمى ..

الكل كانوا ذاهلين ، يحدِّقون فى الشاشة الكبيرة ، غير مصدقين ما تراه أعينهم ! ..

كان حقًّا أمرًا يفوق كل تصوُّر ..

أمر أشبه بروايات الخيال العلمى ، التى لا يميل معظم العسكريين لمشاهداتها ..

وحتمًا ليس لتصديقها ..

فعلى الشاشة ، ومن حيث كان المفترض ، أنها قاعة معمل الدكتور (رياض يوسف) ، كان هناك فراغ !!!

فقط فراغ !!!

القاعة ، بكل كيانها ، مع دائرة نصف قطرها ثلاثون مترًا ، اختفوا تمامًا .. ولم يتركوا فى موقعهم سوى فراغ ..

فراغ راح الجنرال (جاكوب) يحدِّق فيه لحظات ، قبل أن يلتفت لمواجهة كاميرا البث ، قائلًا فى صوت مرتجف ، من فرط الانفعال :

ـ كل هذا حدث فجأة ، بلا مقدمات .. المكان كله تألَّق بضوء أزرق باهت ، ثم اختفى ، ولم يترك سوى هذا ..

كان يشير إلى ذلك الفراغ ، وكل لمحة فى خلجاته تحمل الذهول ، مع توتر بلا حدود ..

ولثوانٍ حاول الرئيس أن يقول شيئًا ، إلا أن غصة عجيبة أعاقت حلقه بضع لحظات ، حاول بعدها أن يتماسك ، وهو يقول :

ـ ضعوا سورًا حول المكان وامنعوا أى كائن من الاقتراب منه ، وبالذات الصحافة والإعلام ، حتى يصل إليكم الفريق العلمى ؛ لدراسة الأمر ..

غمغم (جاكوب) :

ـ دراسة الأمر؟! .. كما تأمر يا سيادة الرئيس .

انتهى الاتصال ، وسمع (جاكوب) صوت أحد ضباطه من خلفه يسأله :

ـ ماذا تعتقد يا جنرال ؟! .. إننى لم أشاهد شيئًا كهذا قط ، حتى فى أفلام الخيال العلمى ..

كان التوتر يملأ كيان الجنرال (جاكوب) ، ويسرى فى كل خلية من خلاياه ، مما منعه من النطق لحظات ، خرج بعدها صوته متحشرجًا ، مغمغمًا :

ـ كائنات فضاء .

ثم التفت إلى ضابطه ، مكررًا ، فى مزيج عصبى من الصرامة والتوتر :

ـ لا يمكن أن يكون هذا أرضيًا .. لا يمكن .

فى نفس اللحظة التى نطقها ، وفى المكتب البيضاوى(*) ، كان الرئيس الأمريكى يقول ، فى توتر واضح :

ـ لو أنه سلاح روسى جديد ، فنحن فى خطر .

غمغم أحد الجنرالات :

ـ وأى خطر ؟!

ثم ارتفع صوته ، وهو يضيف ، محاولًا دفع أكبر قدر من الحزم فى صوته ؛ ليخفى به التوتر المعتمل فى أعماقه :

ـ لو أنهم استطاعوا اليوم إزالة دائرة من الوجود ، مهما بدت محدودة ، دون دوى ، أو تأثير مسبق ، باستثناء ذلك الضوء الباهت ، الذى يصفه الكل ، فهذا يعنى أنه ببعض التطوير ، عبر سنوات قليلة ، يمكنهم محو مدن كاملة من مدننا .

وارتجف صوته ، على الرغم منه ، وهو يضيف :

ـ وربما ولايات بأكملها .

تراجع الرئيس الأمريكى ، وحمل صوته كل التوتر :

ـ ولايات كاملة ؟!

(*) المكتب البيضاوى : هو المكتب الرسمى للرئيس الأمريكى ، ويعود اسمه إلى تصميمه البيضاوى بالفعل منذ إنشائه فى عام ١٩٠٩م ، ضمن أعمال التوسع للجناح الغربى للبيت الأبيض ، مقر الحكم فى (أمريكا) .

أضاف جنرال آخر :

ـ الأخطر أن هذا يمكن أن يحدث فى لحظة ، وبدون زمن كافٍ للفرار ، أو حتى الإنذار .. ماذا لو ومض ذلك الضوء الأزرق الباهت هنا حولنا الآن ، ثم تلاشينا ، كما تلاشت تلك المنطقة ؟! .. ماذا سيصيب البلاد عندئذ ؟! .. أى فراغ دستورى سيسببه هذا ؟!

غمغم الرئيس :

ـ أهذا كل ما يشغلك؟!

ثم استدرك ، فى صرامة متوترة :

ـ ماذا لو ومض الضوء الأزرق حول أسطولنا البحرى ، بكل مَن عليه مِن قوات المارينز ؟! .. ماذا حول مطاراتنا الحربية ، وقواعد الجيش ؟! .. أنا لا أتحدَّث عن فراغ دستورى ، بل عن فراغ حربى .. فراغ يجعل بقدرة أية دولة ، احتلال (أمريكا) ، فى أسبوع واحد أيها السادة .

هبط وجوم شديد التوتر ، على كل الحاضرين ، قبل أن يغمغم المستشار العلمى :

ـ ليس فى الوقت الحالى .

التفت إليه الجميع ، فى دهشة مستنكرة ، فتنحنح فى عصبية ، قبل أن يتابع :

ـ أعنى أنه ما زال لدينا الوقت .

سأله الرئيس فى توتر :

ـ لنفعل ماذا ؟!

أشار بسبَّابته وإبهامه ووسطاه ، مجيبًا :

ـ ثلاثة أشياء .. والأفضل أن تتم كلها ، فى آنٍ واحد .. دراسة ذلك السلاح المفترض ، من خلال لجنة من أفضل وأبرع علماء الطاقة والقوى الكهرومغناطيسية ، وإطلاق الجواسيس والعملاء فى كل (روسيا) ؛ لكشف وجود ذلك السلاح المفترض ، والحصول على تصميماته وأسراره ، مهما كلف هذا من رجال وعتاد وأموال .

سأله وزير الدفاع :

ـ وماذا عن الأمر الثالث ؟!

أدار عينيه إليه ، وهو يجيب فى حزم :

ـ القضاء على الكيان الروسى ... كله .

ووجم الجميع فى شدة هذه المرة ..

فما يقترحه ، كان أمرًا بالغ الخطورة ..

إلى حد مخيف ..

***

*** القاهرة مارس ٢٠٢٤م :**

انعقد حاجبا (طارق) فى شدة ، وهو يلتقى بمموِّل أبحاثه لأوَّل مرة ، منذ بدأ تجاربه ..

إنه نفس الرجل ..

ذلك الطويل الأبيض الأنيق ، الذى قاده إلى فكرة المجال الموحَّد ، فى مارس ، من عام ٢٠١٨م ..

وفى انفعال ملحوظ ، نهض يستقبله فى بهو ذلك الفندق ، ومدَّ يده يصافحه ، مغمغمًا :

ـ كم كنت أتوقَّع هذا !!

بدت ابتسامة باهتة ، على شفتى الرجل ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد .. إنها ليست أوَّل مرة نلتقى .

تساءل الدكتور (محمد) :

ـ هل يعرف أحدكما الآخر ؟!

أجابه الرجل ، وهو يجلس معهما :

ـ مرة واحدة ، منذ فترة .

تمتم (طارق) :

ـ مارس ٢٠١٨م .

اتسعت ابتسامة الرجل لحظة :

ـ تتمتَّع بذاكرة جيدة .

شملهم الصمت لحظات ، قبل أن يلقى الرجل نظرة على ساعته العجيبة ، ويقول فى حزم :

ـ ترى ما سر طلب المقابلة ؟! .. هل هناك صعوبات ، فى صرف الشيك الأخير ؟!

همَّ الدكتور (محمد) بالإجابة ، ولكن (طارق) سبقه إلى الكلام ، وهو يقول فى حزم :

ـ من أين حصلت على تلك الأبحاث ، يا (صفوت) بك ؟!

أجابه الرجل فى هدوء :

ـ لدى مصادرى .

قال الدكتور (طارق) فى لهجة شبه صارمة :

ـ ولكن الدكتور (رياض) لم يكمل أبحاثه أبدًا .. لقد اختفى عام ٢٠١٩م ،

واختفت معه كل أبحاثه حول قدرة الخلايا الحية .

تراجع الرجل ، وقال :

ــ هذا ما يتصورونه .

كرّر (طارق) فى صرامة واضحة :

ــ من أين حصلت على أبحاثه ؟!

شعر الدكتور (محمد) أن الموقف سيتوتر ؛ فهب يقول ؛ محاولاً تخفيف حدة لهجة (طارق) :

ــ لقد راجعنا تلك الأبحاث ، وهى واعدة بحق .

ألقى الرجل نظرة أخرى على ساعته العجيبة ، وغمغم فى صرامة :

ــ ماذا إذن ؟!

همّ الدكتور (محمد) بالتعليق ، ولكن (طارق) قاطعه مرة أخرى ، فى انفعال واضح :

ــ ولكن من المستحيل أن تكون أبحاث الدكتور (رياض) !!

عاد الرجل يلقى نظرة على ساعته الكبيرة ، وقال فى صرامة ، اختلطت بتوتره :

ــ هل لاحظتما أنكما تضيعان الكثير من وقتى دون طائل ؟!

نقل (طارق) بصره ، بين ساعة الرجل ووجهه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ ما نوع هذه الساعة بالضبط ؟!

أخفى الرجل ساعته بكفه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ لا شأن لك بهذا .

سأله فى صرامة أكثر :

ـ أهو سر ؟!

أجابه بكل صرامة ، وهو ينهض فى توتر :

ـ ربما .. اسمحا لى بالتغيب بضع دقائق .

قالها ، واندفع مبتعدًا ، دون انتظار إجابتهما ، فالتفت الدكتور (محمد) إلى (طارق) ، هاتفًا :

ـ كنت حادًّا بشدة مع الرجل !!

أجابه (طارق) فى صرامة :

ـ وهو كان مراوغًا بشدة أيضًا .

حمل صوت الدكتور (محمد) بعض الغضب والعتاب :

ـ لا تنسَ أنه من يموِّل أبحاثنا .

تراجع (طارق) ، وهو يتطلَّع إلى حيث ذهب الرجل ، قائلًا :

ـ ومن يمدنا بالكثير من المعلومات أيضًا ، وسؤالى هو لماذا ؟!

أجابه الدكتور (محمد) فى توتر :

ـ أخبرتك أنه محب للعلم .

هزّ (طارق) رأسه نفيًا فى بطء :

ـ لا يبدو لى هذا كافيًا .

تراجع الدكتور (محمد) ، يتطلَّع إليه لحظات ، فى ضيق واضح ، قبل أن يقول فى شىء من الصرامة :

ـ أخشى أنك قد تفسد كل شىء .

صمت (طارق) لحظات ، ثم تمتم :

ـ ربما .

ثم استدرك معتدلًا :

ـ ولكن الأمر أشبه بلغز علمى .. نحن فى عام ٢٠٢٤م ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سجّل الدكتور (رياض) ـ لو أن هذه أبحاثه بالفعل ـ أنه قد انتهى منها عام ٢٠٣٣م ، كما رأيت بنفسك .

انعقد حاجبا الدكتور (محمد) متمتمًا :

ـ ربما هو خطأ طباعى فحسب !!

أشار (طارق) بيده :

ـ وماذا عن تلك الساعة العجيبة ؟!

زفر الدكتور (محمد) ، وهو يقول ، مشيحًا بوجهه :

ـ الرجل فاحش الثراء كما ترى ، وربما هى إصدار خاص .

مال (طارق) نحوه ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليست ساعة عادية .

غمغم الدكتور (محمد) بنفاد صبر :

ـ أخبرتك أنها إصدار خاص على الأرجح .

قال (طارق) فى حزم :

ـ إنها ليست رقمية ، وليست عادية أيضًا ؛ فليس لها عقارب .

صمت الدكتور (محمد) تمامًا هذه المرة ، وهو يتطلّع إليه ، فتابع

(طارق) ، وهو يتراجع فى مقعده فى تفكير :

ـ وهو لا يرغب فى الإجابة ، عن أية أسئلة بشأنها .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ هذا حقه .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى ضيق :

ـ عندما يعود ، لا أريدك أن تتحدَّث معه فى هذا الشأن مرة أخرى .

صمت (طارق) لحظة ، ثم تساءل ، وهو يلتفت إليه :

ـ هل تعتقد أنه سيعود ؟!

وتراجع الدكتور (محمد) ، ووجهه يمتقع فى شدة ..

فماذا لو أنه لم يعد بالفعل ؟!

هل سيعنى هذا أنه سيتخلى عن تمويل المشروع كله ؟! ..

هل ؟! ..

انكمش فى مقعده ، والسؤال يلتهم كيانه كله ..

بلا رحمة ..

* * *

* زيورخ ٢٠٠٠م :

راح قلب (كورباكوف) يخفق فى قوة ، وهو يتطلّع عبر نافذة ذلك المعمل الواسع ، فى الطابق العلوى من بناية قديمة ، إلى الثلوج المتساقطة ، على المدينة السويسرية الأشهر وإلى الأضواء العديدة ، التى تزيِّن كل مكان ، وغمغم فى توتر بلغ مداه :

ـ ولكن كيف ؟!

لم يكن باستطاعته أبدًا استيعاب ما حدث !!..

كان هذا يفوق علومه وإدراكه ..

ألف مرة ..

لقد كان داخل تلك الزنزانة الرطبة ، فى قبو تحت حماية مشددة ، ومقيدًا بالأغلال المعدنية ، ويتعرض لتعذيب بشع ..

ثم ظهر ذلك الرجل من العدم ..

وأذاب قيوده المعدنية ..

ثم أمسك كتفيه ..

وغرس فى عنقه شيئًا ما ..

ومن المحتَّم أن هذا قد أطلق شيئًا ما فى كيانه ..

فقد انتفض جسده كله ..

وشعر بقوة تسرى فى عروقه ..

ثم كانت الأضواء ..

وكان الدوار ..

ثم الظلام ..

وبعدها جاء الاستيقاظ المفاجئ هنا ..

فى هذا المعمل ..

فى قلب (زيورخ)(*) ..

وليوم أو يزيد ، تصوَّر أن ذلك الرجل ، قد نقله بوسيلة ما ، من الاتحاد السوفيتى إلى (سويسرا) ..

حتى هذا اليوم ..

اليوم الذى يحتفلون فيه ببداية عام جديد ..

عام ٢٠٠٠م !! ..

عندما كان فى تلك الزنزانة ، كان فى عام ١٩٩٠م !! ..

ثم ، وبقفزة واحدة ، صار فى عام ٢٠٠٠م !! ..

عشرة أعوام كاملة ، مرَّت فى غمضة عين !! ..

والسؤال هو كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

التفت يتطلَّع إلى ذلك المعمل من حوله ، وقلبه يخفق أكثر وأكثر ..

أهو ضحية تجربة ما ؟! ..

تجربة شيطانية مخيفة ؟! ..

ولكن هذا المعمل يناسبه تمامًا ..

به كل ما يحتاج إليه ..

(*) زيورخ : إحدى أهم مدن (سويسرا) ، وأكبرها على الإطلاق .. تقع فى وسط شمال البلاد بالقرب من الحدود الألمانية ، على بحيرة (زيورخ) ، تشتهر بمصارفها ، التى تعتبر الأفضل فى العالم ، وتعد أكثر مدن العالم أمنًا ونظافة وهدوءًا .

وعلى نحو أحدث مما يعرف بكثير ..

عشر سنوات من التقدُّم التقنى والتكنولوجى ، لا يمكن أن يستوعبه ، سوى عالم بعبقريته ، يتمتَّع بعقل قابل للتطوُّر السريع ..

وهناك لوحة كبيرة على الجدار ، طبعت عليها ، بحروف عجيبة مضيئة ، تعليمات لما ينبغى فعله ..

وعلى اللوحة نفسها ، إشارة إلى وجود وعاء فى خزانة خاصة بالمعمل ، به كل ما يحتاج إليه فى أبحاثه ..

ولم تشر اللوحة إلى ماهية ذلك الشىء ، المفترض أنه يحتاج إليه فى أبحاثه !! ..

وفى حذر ، اتجه (كورباكوف) إلى تلك الخزانة ، وتوقف أمامها لحظات فى تردُّد ، وصراع بين خوفه وفضوله العلمى ..

ثم انتصر الأخير فى النهاية ، فانحنى يفتح الخزانة ، ويتطلَّع إلى ذلك الوعاء الكبير ، متمتمًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

تردَّد لحظة أخرى ، ثم فتح غطاء الوعاء فى حذر ..

ثم ارتدَّ مصعوقًا ..

فما يحويه ذلك الوعاء كان ، بالنسبة لأى عالم على الأرض ، مفاجأة علمية تفوق التصوُّر ..

كل تصوُّر !!!

***

*** الجيزة إبريل ٢٠١٩م :**

سرى توتر شديد ، فى كيان الدكتور (طه عبد الودود) ، وهو يقف مع ذلك الرجل الغامض ، أمام مدخل ذلك الممر الأثرى ، على ضوء مصباح يدوى صغير ، وبكل عصبيته ، غمغم :

ـ ما تفعله غير قانونى .

غمغم الرجل فى صرامة :

ـ أعلم هذا .

تمتم (طه) ، فى عصبية أكثر :

ـ لو ألقى القبض علينا ، سوف ...

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ اصمت ، ونفذ ما لديك من تعليمات فحسب .

انعقد حاجبا (طه) فى توتر ، وهو يزيح بعض التراب ، ثم يضغط رسمًا ، أرشده إليه هذا الرجل ، وتراجع فى دهشة ، وهو يهتف مصعوقًا :

ـ الباب يتحرّك !!

قال الرجل فى شغف :

ـ لقد ضغطت زر فتحه .

مال الباب الحجرى فى بطء وهدوء ، كاشفًا ممرًّا طويلًا أمامه .. وفى ذهول ، هتف (طه) :

ـ الفراعنة لم يتوصّلوا إلى هذا فى زمنهم !! .. هذا مستحيل !!

أجابه الرجل فى حزم ، وهو يسبقه إلى الممر :

ـ هذا ما تتصوّرونه .

بعد لحظات من التوتر ، ومدفوعًا بفضوله العلمى ، تبعه (طه) عبر الممر ، الذى لم تبد جوانبه متناسبة ، مع كل الآثار الفرعونية ، التى رآها فى حياته !! ..

لم تكن به رسوم ، مثل كل الجدران الأثرية ..

والأدهى ، أنه لم يكن حجريًا ..

فعلى عكس كل ما درسه ، وعرفه ، واختبره فى حياته ، كانت الجدران معدنية ..

عارية ..

ومصمطة ..

وفى ذهول ، وعلى ضوء مصباحه اليدوى ، تمتم :

ـ كيف فعلوها ؟!

أجابه الرجل ، وهو يواصل المضى عبر الممر :

ـ لم يفعلوها .

هتف به فى انفعال :

ـ ماذا تعنى ؟!

لم يجبه الرجل ، وهو يتوقَّف عند باب داخلى من الحجر له مقبضان من النحاس ، فغمغم (طه) فى انفعال :

ـ نفس طبيعة الأبواب ، داخل ممرات الهرم(*) .

(*) حقيقة .

أشار الرجل إلى مقبضى النحاس ، قائلًا في لهجة قائد يخاطب جنوده :
ـ لا بد وأن نجذبهما ، فى الوقت نفسه .
أطاعه (طه) فى لهفة ، وأمسك كل منهما أحد المقبضين ، والرجل يقول :
ـ عند إشارتى سنجذبهما معًا ، كل فى اتجاهه .
وافقه (طه) بإيماءة خفيفة من رأسه ، ومع إشارة الرجل ، جذب كل منهما مقبضه تجاهه ..

وصدر صرير من الباب الحجرى ..

ثم انزاح بنفس البطء ، مثل مدخل الممر ..

ومن خلفه ، انكشفت تلك القاعة ، التى ظلت لعقود مجرَّد أسطورة ، قلَّ من يؤيدها !!!

قاعة الحكمة !!!

أكبر مخزن للعلوم والمعرفة عرفه التاريخ المكتوب !!!

على الإطلاق !!!

* * *

• القطب الشمالى مايو ٢٠٣٤م :

تلاحقت أنفاس (روبرت) ، على نحو أشعره بالكثير من الإرهاق ، وهو يدخن سيجارته فى توتر شديد ، وألقى نظرة على (جاك) ، الذى جلس واجمًا ساكنًا شاردًا ، قبل أن يهتف :

- هذا مستحيل !!

تطلّع إليه (جاك) فى صمت وشحوب ، فتابع :

- لم أصدق عينىّ ، عندما رأيت ما يوجد ، داخل ذلك الناقوس الكريستالى !!

وافقه (جاك) بإيماءة شاحبة من رأسه ، وبذل جهدًا حقيقيًا ؛ لينتزع الكلمات من حلقه ، وهو يغمغم :

- من المستحيل ، علميًا وعمليًا أن يكون هناك .

ولوّح بيده ، مع عجز عن النطق لحظات ، من فرط الصدمة ، قبل أن يستطرد :

- الجليد الذى يعلوه ، تراكم منذ مئات السنين ، فكيف ..

لم يستطع إتمام عبارته ، فهتف (روبرت) فى عصبية :

- هذا يفوق كشف (الماموث) .

ازدرد (جاك) لعابه عبر حلقه الجاف ، قبل أن يغمغم فى شحوب :

- هذا أمر آخر .

وحاول مرة أخرى ازدراد لعابه ، ثم تابع ، فى صوت أكثر شحوبًا :

- إنه رجل .

بدا (روبرت) أكثر عصبية ، وهو يلقى سيجارته بعيدًا ، ويشعل أخرى ، هاتفًا :

ـ وليس مجرَّد رجل .

غمغم (جاك) ، وهو يلتفت إلى جهاز اللاسلكى :

ـ لا بد وأن نبلغ المسئولين فورًا .

أمسك (روبرت) يده ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ليس بهذه السرعة .

التفت إليه (جاك) بنظرة متسائلة ، فتابع بنفس العصبية :

ـ هذا الكشف ، ربما يكون أعظم كشف علمى فى التاريخ المكتوب .

غمغم (جاك) فى صعوبة :

ـ هذا صحيح .

مال (روبرت) نحوه ، وهو يقول فى حزم :

ـ لمن سينسب إذن ؟!

حدَّق فيه (جاك) فى دهشة ، وغمغم :

ـ لنا بالطبع .

هتف به (روبرت) :

ـ ومن أدراك ؟!

لم يفهم (جاك) ما يعنيه (روبرت) ، فتمتم فى صعوبة :

ـ ولم لا ؟!

هتف به (روبرت) :

ـ لأنك ما أن تبلغ المسئولين ؛ حتى يتحوَّل المكان هنا إلى سيرك .. ومع كشف كهذا ، من المحتمل جدًّا أن يقوموا بإغلاق المكان ، ومحاصرته ، وربما اعتباره أمنًا قوميًّا أيضًا .

تمتم (جاك) فى ذهول :

ـ أمن قومى ؟!

هتف به (روبرت) ، وهو يشير بيده :

ـ ألا يبدو لك كذلك ؟!

صمت (جاك) لحظات ، ثم تمتم :

ـ بلى .

مال (روبرت) نحوه ، قائلًا فى انفعال :

ـ وعندئذ سيبقونه سرًّا ، ولن يعلم العالم بأمره ، ويضيع كشفنا العظيم ، داخل ملفات سرية ، فى قبو الشرطة الفيدرالية ، أو وكالة الأمن القومى .

اتسعت عينا (جاك) ، وهو يتساءل فى قلق :

ـ ألن نبلغ المسئولين إذن ؟!

أجابه (روبرت) فى سرعة :

ـ بل سنبلغهم .

ثم مال على أذنه ، مستدركًا فى حزم :

ـ بعد أن نبلغ الصحافة أولا .

وعلى الرغم من أن (جاك) لم يبد أية رد فعل ، إلا أن الاقتراح بدا له منطقيًا ومعقولًا للغاية ..

فمن العار أن يخسر كشفًا كهذا ..

فما حواه هذا الكشف مذهل بحق ..

وبكل المقاييس .

* * *

الفصل الحادى عشر

* **القاهرة مارس ٢٠٢٦م :**

لنصف يوم كامل ، اعتزل (إبراهيم) تمامًا فى مكتبه ..

لم يعقد اجتماع المحررين اليومى المعتاد ..

لم يستقبل زوارًا ..

لم يجب حتى هاتفه ..

تلك الغصة فى حلقه ، منعته من كل من حوله وما حوله ، منذ وصله ذلك الخبر ، الذى لم يعلن للعامة بعد ..

المحكمة وافقت على دفع التعويض ، لحفيد (نجيب باشا خورشيد) ! ..

كل ما فعلته الحكومة ، هو التفاوض على سداد المبلغ ، على أقساط سنوية ، مقدارها مليار دولار للسنة الواحدة ..

وغدًا ، سيحصل الحفيد المزعوم ، على المليار الأوَّل ..

أضخم تعويض ، دفعته (مصر) ، فى تاريخها كله ..

بل أضخم تعويض ، دفعته أية دولة لفرد واحد فى التاريخ ..

كان هذا يزعجه ..

ويؤلمه ..

ويثقل على صدره وعقله ..

الأسوأ ، والأكثر عجبًا ، هو ما حدث أثناء المحاكمة نفسها ..

لقـد تقـدَّم (إبـراهيـم) للقاضـى وهيئـة المحكمـة ، بمـا يثبـت أن (نجيب خورشيد) هذا ، لم يكن له وجود ..

ولكن محامى (صفوت خورشيد) هذا ، قدَّم أصل شهادة ميلاد ، وأصل العقد ، وأبطل كل ما حاوله (إبراهيم) ..

الأمر الذى أدهشه ، وجذب انتباهه بشدة ، أن شهادة الميلاد ، والعقد الأصلى ، كانا محفوظين بشكل مدهش ، كما لو أنهما خرجا بالأمس فقط !!

ولقد تم فحصهما جيدًا ، وبمنتهى الدقة ، عبر أحدث التقنيات المتاحة ، من قبل قسم الأدلة الجنائية الجديد ..

وجاءت النتيجة مدهشة ..

فعلى الرغم من أن الأوراق نفسها تبدو بحالة جيدة للغاية ، إلا أنها من نفس نوع الورق ، الذى كان يستخدم ، فى عام ١٩٤٥م ، والتى لم تعد متاحة أبدًا ..

والأختام كلها صحيحة ، لا تشوبها شبهة التزييف ..

والحـبر المستخـدم ، لـه تركيبـة قديمـة ، بمكونـات يستحيـل الحصـول عليهـا ، فى هذا العصر .. ولهذا ، فعلى الرغم من غرابة الأمر ، لم يسع الأدلة الجنائية ، سوى الإقرار بصحة العقد وشهادة الميلاد ..

شهادة الميلاد ، التى لم يعثر عليها أحد من المراسلين ، مع كل ما بذلوه من جهد ، ظهرت فجأة فى المحكمة ..

والأغرب أنها ظهرت فجأة فى السجلات القديمة !!

نفس السجلات ، التى فحصها بنفسه حرفًا حرفًا ، ولم يجد بها أى دليل !!!

فكيف يمكن هذا ؟! ..

كيف ؟! ..

« الأمر يحيرك .. أليس كذلك ؟! .. » ..

انتفض فى شدة ، عندما سمع هذا الصوت ، عند ركن مكتبه ، وقفز من مقعده ، يحدّق فى ذلك الأبيض الطويل بالغ الأناقة ، الذى ظهر مبتسمًا فى سخرية ظافرة ، وهو يخرج من الركن ، ويتجه إليه ، فى خطوات هادئة ..

وبكل ذهوله ، هتف :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟! .. لقد أغلقت الباب بالمفتاح .

واصل الرجل تقدمه بنفس الهدوء ، وجلس على مقعد أمام المكتب ، مجيبًا :

ـ هذا لن يمنعنى .

ظلّ (إبراهيم) يحدّق فيه لحظات ، محاولًا تمالك نفسه ، واستيعاب الأمر ، ثم جلس على مقعده خلف مكتبه فى بطء ، دون أن يبعد بصره عن الرجل :

ـ ما سرك ؟! .. كيف تفعل هذا ؟!

أشار الرجل بسبّابته ، مع نفس الابتسامة الساخرة الظافرة :

ـ أتريد القصة كلها ، أم إجابة هذا السؤال فحسب ؟!

صمت (إبراهيم) لحظات ، ثم غمغم فى توتر :

ـ القصة كلها .

اتسعت ابتسامة الرجل ، دون أن تفقد فحواها ، وهو يقول :

ـ كنت واثقًا من هذا .. الصحفى داخلك لن يرضى إلا بالقصة كاملة .

مال (إبراهيم) عبر مكتبه ، وهو يقول :

ـ لقد خدعت الكل .. أليس كذلك ؟!

بكل برود وصفاقة أجابه :

ـ بلى .

ثم ابتسم فى سخرية ، مستدركًا :

ـ ولكن كيف ؟! .. هذا هو السؤال .

التقطها منه (إبراهيم) ، وهو يزدرد لعابه ، مغمغمًا :

ـ نعم .. كيف ؟!

ثم استطرد فى لهفة ، وهو يضع بينهما جهاز تسجيل رقمى دقيق :

ـ أخبرنى كل التفاصيل .

تطلّع الرجل فى سخرية ، إلى جهاز التسجيل ، ثم أخرج شيئًا أشبه بعملة معدنية من جيبه ، وضعه أمامه ، قائلًا :

ـ وهل ستصدِّق أو تستوعب ما سأقوله ؟!

هتف (إبراهيم) فى لهفة :

ـ سأحاول .

مال الرجل نحوه ، وهو يقول فى لهجة ، بدت له عابثة :

ـ هل سمعت عن السفر عبر الزمن ؟!

تراجع (إبراهيم) فى دهشة ، وهو يحدِّق فيه :

ـ هل أتيت لتسخر منى ؟!

أجابه فى سخرية واضحة :

ـ بل أتيت لأخبرك الحقيقة ، التى لن تستطيع نشرها ، وإلا اتهموك بالجنون .

حدَّق فيه (إبراهيم) مرة أخرى بنظرة عجيبة ..

ماذا يقول هذا الرجل ؟! ..

أهو عبث ؟! ..

أم أمر يفوق كل خيال ؟! ..

حسب معلوماته ، آخر آلة زمن يعرفها ، هى تلك التى شاهدها ، عام ٢٠٠٢م ، فى فيلم (آلة الزمن) ، الذى أخرجه (سيمون ويلز) ، حفيد مؤلف القصة الأصلية (هربرت جورج ويلز) (*) ..

كان طفلًا صغيرًا ، عندما شاهد الفيلم ، وانبهر بالقصة ، ولكنه تعامل معها دومًا باعتبارها مجرَّد خيال علمى ، لا يرقى إلى مستوى العلم الحقيقى ..

فما الذى يسعى إليه هذا الرجل الغامض ؟! ..

خفق قلبه فجأة فى عنف ، عندما قفزت الفكرة المستحيلة إلى رأسه ..

أمن الممكن هذا ؟! ..

يا إلهى !! .. لو أن هذا صحيح ، فهو يفسِّر الأمر كله !!! ..

بل هو التفسير الوحيد لكل الأمور !! ..

(*) هربرت جورج ويلز : (٢١ سبتمبر ١٨٦٦م ـ ١٣ أغسطس ١٩٤٦م) ، من أشهر كتاب الخيال العلمى فى التاريخ ، من مواليد (إنجلترا) ، ومن أشهر أعماله (الرجل الخفى) ، (جزيرة د . مورو) ، (حرب العوالم) ، (أول الرجال على القمر) ، و(آلة الزمن) ، التى كتبها عام ١٨٩٥م ، وحوَّلها حفيده (سيمون ويلز) إلى فيلم من بطولة (جاى بيرس) و(سامنثا سوبا) عام ٢٠٠٢م .

رفع عينيه فى حركة حادة ، يحدِّق فى الرجل فى ذهول ، فابتسم هذا الأخير ، مغمغمًا :

ـ عقلك بدأ يستوعب الأمر .. أليس كذلك ؟! .. ملامحك تفصح عن هذا .

حاول (إبراهيم) أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

كانت هناك آلاف الأسئلة ، تتصارع فى عقله ، وتتزاحم على لسانه ، وكل منها يحاول الخروج من حلقه قبل الآخر ..

وفى النهاية ، وفى صوت متحشرج ، غمغم :

ـ اسمك ليس (صفوت) .. أليس كذلك ؟!

أطلق الرجل ضحكة قصيرة ، وقال ساخرًا :

ـ أهذا كل ما دار بخلدك ؟! ..

ثم ألقى نظرة على ساعته الكبيرة ، ونهض قائلًا :

ـ لقد أضعنا الكثير من الوقت ، فى مرحلة التعارف الأولى .. سنؤجل اللقاء الفعلى لـ ..

هب (إبراهيم) واقفًا ، وهو يهتف :

ـ ليس بعد .. لم ترو لى شيئًا .

أجابه الرجل ، وهو يتجه نحو الركن فى هدوء :

ـ فى المرة القادمة .. جهز كل أسئلتك ، حتى لا تضيع الوقت .

هتف به (إبراهيم) ، وهو يمد يده نحوه :

ـ انتظر .. إننا ...

ولكن ركن الحجرة تألق فجأة بضوء أزرق باهت ، ثم اختفى ذلك الرجل دفعة واحدة !!

اختفى مع ذلك الضوء ، وكأن كليهما لم يوجد أبدًا ..

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، ظلَّ (إبراهيم) يحدِّق فى ذلك الركن ، بملامح ذاهلة ، وعينين متسعتين ، وفم مفغور ، قبل أن يتمتم فى شحوب ، عبر حلق بلغ جفافه مبلغه :

ـ مستحيل !!!

تسمَّر فى مكانه لدقيقة أخرى ، ثم انتفض ، وكأنه يستعيد وعيه ، واندفع نحو جهاز التسجيل الرقمى الصغير ، وأشعله ؛ ليراجع محادثته مع ذلك الغامض ..

ثم استعاد ذهوله ، مع رجفة قوية ، وقشعريرة باردة ، تسرى فى كيانه كله ..

فالتسجيل كان فارغًا ، لا يحوى شيئًا !!

أى شىء !!

على الإطلاق !!

***

*** أوسلو ، ٢٠٣١م :**

تهللت أسارير عالم الليزر النرويجى ، البروفيسير (هانز إبسن) ، وصفق بكفيه فى جذل ، هاتفًا بمساعديه فى معمله :

ـ فعلناها يا رفاق ..

التهبت أكفهم بالتصفيق ، وحناجرهم بالهتاف ، فانحنى يرد تحيتهم ، ولوَّح لهما بيديه ، قائلًا :

ـ هذا أقوى شعاع ليزر ، عرفه العلم الحديث .. حزمته يقل سمكها ، بعشرة آلاف مرة ، عن سمك آخر ليزر جراحى دقيق معروف ، وشدته تطلق حرارة تفوق حرارة الشمس مائتى مرة .

عادوا يصفقون ويهللون فى فرح ، وقال أحدهم فى سعادة :

ـ لو عرضنا هذا الشعاع الجديد على وزارة الدفاع ، فسنحصل على تعاقدات قد تبلغ المليار .

تبخَّرت فرحة (إبسن) على الفور ، وانقلبت سحنته ، وتحوَّلت لهجته ، من الفرح إلى الصرامة ، وهو يقول فى خشونة :

ـ لا .. وزارة الدفاع لا .

هبط وجوم على كل مساعديه ، وغمغمت واحدة منهم فى حذر :

ـ ولكنه سلاح جبار يا بروفيسير .

أضاف آخر فى انفعال :

ـ حزمة أكبر منه ، يمكنها تدمير عشر دبابات ، فى أقل من دقيقة واحدة .

تردَّد ثالث ، قبل أن يقول :

ـ وسرب صغير من الطائرات ، فى أقل من ثلاث دقائق .

هتف (إبسن) :

ـ لم أصنعه ليكون سلاحًا .. إنه غرض صناعى بحت ، ويمكن استخدامه فى بعض الجراحات السرطانية الميكروسكوبية الدقيقة .

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى حزم :

ـ هذا أيضًا يدر الكثير من المال .

غمغم أحدهم ، بخيبة أمل :

ـ ولكن ليس مليارًا .

صرخ (إبسن) :

ـ لا أريد حديثًا عن المال .

صمت الكل على الفور ، فى حين التقط هو نفسًا عميقًا ، عقب صراخه ، وكأنه يحاول أن يضخ المزيد من الأكسجين فى خلاياه ، ثم قال فى لهجة أرادها هادئة متماسكة ، ولكنها جاءت ـ على الرغم منه ـ عصبية متوترة :

ـ ما فعلناه هنا اليوم ، أريده أن يظلّ سرًّا ، وألا يعلم به أحد ، أيًّا كان ، قبل أن أقرر لحظة إعلان الأمر بنفسى .

وافق الكل بهمهمات متداخلة ، فلوَّح بكفه ، قائلًا :

ـ أنا فى مكتبى .. امنحونى نصف الساعة بلا إزعاج .

اتجه إلى مكتبه الصغير ، المنعزل فى آخر ممر طويل ، فى معمله الكبير ، المطلّ على البحر مباشرة ، فى أكثر مناطق (أوسلو) (*) روعة وهدوءًا ..

(*) أوسلو : العاصمة الرسمية لمملكة النرويج ، وأكبر مدنها ، وهى المركز الثقافى والصناعى والاقتصادى الرئيسى ، ومن أهم الموانئ البحرية .

كان ينشد بعض الراحة والعزلة ، والاستمتاع بمرأى البحر ، عبر النافذة الكبيرة ، المطلة عليه مباشرة ، ولكنه لم يكد يدخل المكتب ، حتى فوجئ برجل داخله ، نهض يستقبله بلهجة هادئة :

ـ دكتور (هانز إبسن) ؟!

حدَّق فيه (إبسن) ، وهو يسأله فى عصبية :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

تجاهل الرجل السؤال تمامًا ، وهو يمد يده لمصافحته :

ـ كم يشرفنى أن أصافح إمبراطور الليزر .

تراجع (إبسن) ، مبتعدًا عن اليد الممدودة نحوه ، هاتفًا :

ـ من أنت ؟!

كان الرجل يتكلم الإنجليزية وليست النرويجية ، ويتكلمها بلكنة توحى بأنها ليست لغته الأم ، مما أقلق (إبسن) ، وأصابه بخوف غامض ، لاحظه الرجل على الفور ، فخفض يده ، وهو يقول :

ـ لست أضمر لك أى سوء يا بروفيسير .. صدقنى .

عاد (إبسن) يكرر فى عصبية :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

جلس الرجل ، وهو يقول فى هدوء :

ـ كان الباب مفتوحًا .

أجابه فى سرعة وصرامة :

ـ أغلقه خلفى دومًا .

فرد الرجل كفيه ، بمحاذاة وجهه ، وهو يقول ، مع ابتسامة هادئة :

ـ هل أبدو لك لص اقتحام يا بروفيسير ؟!

هدوءه وابتسامته ، هدآ بعض الشيء من توتر (إبسن) ، فتردَّد لحظة ، ثم دلف إلى حجرة مكتبه ، وهو يقول في صرامة :

ـ ماذا تريد ؟!

أجابه الرجل في هدوء :

ـ استشارة بخصوص الليزر .

سأله في حذر :

ـ أي خصوص ؟!

مال نحوه ، يسأل :

ـ قرأت في إحدى المجلات العلمية مقالا ، يقول : إننا لو استخدمنا دوائر الليزر القوى ، فمن الممكن أن تُصنع في مركزها منطقة ، يتوقَّف فيها الزمن(*) .

صمت (إبسن) لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم مطَّ شفتيه ، مغمغمًا :

ـ مجرَّد نظرية .

حمل صوت الرجل لمحة من القلق :

ـ أتعنى أنها غير ممكنة علميًا ؟!

تردَّد (إبسن) لحظات ، ثم هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ليس في الوقت الحالي .

(*) نظرية حقيقية .

سأله فى لهجة ، حملت شيئًا من اللهفة :

ــ وما المانع ؟!

لوَّح (إبسن) بيده ، مجيبًا :

ــ هذا يحتاج إلى قوة ليزر هائلة ، تتجاوز كل المتاح حاليًا .

سأله فى سرعة :

ــ وماذا عن الليزر الجديد ؟!

انتفض (إبسن) ، وحدَّق فيه فى ذهول مستنكر ، استغرق لحظات ، قبل أن يهتف به فى عصبية :

ــ أى ليزر ؟!

اعتدل الرجل ، قائلًا فى هدوء :

ــ تعمل على شعاع جديد من الليزر ، أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (إبسن) فى شدة ، وهو يسأله فى صرامة :

ــ أين تعمل بالضبط ؟!

غمغم الرجل :

ــ وما شأن هذا بسؤالى ؟!

سأله فى حدة :

ــ أتعمل فى وزارة الدفاع ؟!

تنهَّد الرجل ، وجذب مقعدًا ؛ ليجلس أمام (إبسن) مباشرة ، وهو يقول :

ــ دكتور (إبسن) .. أقسم لك إنه لا صلة لى بوزارة الدفاع النرويجية ولا بأية وزارة دفاع ، لأية دولة فى العالم .. ولست أنتمى إلى أية جهة أمنية أو استخباراتية ، فى أى من أركان العالم الأربعة .

سأله فى صرامة :

ـ من أنت إذن ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ عالم مثلك ، تشغله معضلة علمية ، ويتمنى أن تعاونه فى حلها .

تطلَّع (إبسن) إليه لحظات فى شك ، ثم غمغم :

ـ أية معضلة ؟!

زفر الرجل فى حرارة ، قبل أن يجيب :

ـ معضلة تتجاوز حدود العلم والخيال .

اعتدل (إبسن) ، وغلبه فضوله العلمى ، وهو يسأله :

ـ هات ما لديك .. كلى آذان مصغية .

مال الرجل نحوه ، قائلًا فى اهتمام :

ـ أحتاج أوَّلًا إلى كل خيالك العلمى الخصب .

ولربع الساعة تقريبًا ، راح يشرح كل ما لديه ..

لم يسمع أحد حوارهما ، ولكن ملامح البروفيسير (إبسن) وهو يستمع إليه ، كانت تؤكِّد أن المعضلة معقَّدة وخطيرة بالفعل ..

خطيرة جدًّا ..

جدًّا ..

* * *

*** الجيزة إبريل ٢٠١٩م :**

فـى دهشـة متوتـرة مستنكـرة ، هـزَّ وزير الآثار رأسه ، وهو يهتف بالدكتور (طه) ، وهما يقفان أمام باب الممر :

ـ ولكن لماذا يا دكتور (طه) .. لماذا طلبت منع الإعلام والصحافة من حضور الافتتاح ؟!

غمغم (طه) :

ـ لست أدرى ماذا يمكن أن نجد فى الداخل ؟!

أجابه الوزير فى حدة :

ـ مقبرة فرعونية بالطبع .

تمتم (طه) فى توتر :

ـ ربما لا تكون مجرَّد مقبرة عادية .

زفر الوزير ، وهو يقول بنفاد صبر :

ـ إنها لن تفوق مقبرة (توت عنخ آمون) .

غمغم (طه) :

ـ من يدرى ؟!

ثم استدرك فى صوت متوتر مرتفع :

ـ ربما تفوقها بألف مرة .

تطلَّع إليه الوزير فى دهشة ، قبل أن يميل نحوه ، ويسأله :

ـ هل تعلم شيئًا لا أعلمه يا دكتور (طه) ؟!

حمل صوت (طه) كل التوتر ، وهو يقول :

ـ شىء مثل ماذا ؟!

قالها وذهنه يستعيد لحظات عودته إلى منزله ليلة أمس ..

كان ما زال يشعر بتأنيب الضمير ، بعدما سمح لذلك الغامض ، بالاستيلاء على ذلك الوعاء القديم ، من داخل القاعة ، ويرحل به ..

ولكنه كان مستعدًا لفعل أى شىء فى الوجود ، من أجل ابنته وزوجته ..

الرجل وعده أن يعود إلى منزله ؛ فيجدهما هناك ..

ولكنه عندما عاد ، كان المنزل خاليًا ..

شعر بحزن يعتصر قلبه ، عندما لم يجدهما هناك ، وكاد يبكى ، وهو يلقى جسده على المقعد الكبير ، المواجه لباب شقته تمامًا ..

هل خدعه ذلك الرجل ؟! ..

هل لعب بمشاعره ؛ ليفرَّ بفعلته ؟! ..

والسؤال الأهم : هل آذى زوجته وابنته ، أم ...

قبل أن يكتمل السؤال فى ذهنه ، سمع صوت المفتاح يدور بالباب ، فاعتدل فى لهفة ، وخفق قلبه فى شدة ، عندما رآهما تدخلان ، وهما تبتسمان وتتمازحان ، وكأن شيئًا لم يكن !!

وبكل لهفة الدنيا اندفع نحوهما ، واحتضنهما فى قوة ، وهو يهتف :

- حمدًا لله .. حمدًا لله .. أأنتما بخير ؟!

أجابته زوجته فى دهشة :

- بالتأكيد .. ماذا هناك ؟!

هتف بها ، وهو يحتضنهما مرة أخرى :

- أين كنتما ؟! .. كدت أموت قلقًا !!

حمل صوت زوجته كل الدهشة :

- كنا فى عيد الميلاد .. هل نسيت ؟!

نظر إليها فى دهشة :

ـ كان ذلك أوَّل أمس .

حمل صوت زوجته مزيجًا من الدهشة والخوف هذه المرة ، وهى تسأله مرتجفة :

ـ ماذا أصابك يا (طه) ؟! .. لقد ذهبنا منذ ساعات قليلة فحسب .

حدَّق فيها فى ذهول :

ـ ساعات قليلة ؟!

ثم جذبها نحو الساعة الرقمية على الجدار ، والتى تحوى التاريخ ، إلى جوار التوقيت ، وهو يقول فى توتر :

ـ انظرى .

حدَّقت فى الساعة ، وخفق قلبها فى عنف ..

لقد مرَّ يومان ، منذ غادرت حفل عيد الميلاد مع ابنتها !!!

ولكن كيف ؟! ..

هذا مستحيل !! ..

مستحيل !! ..

« دكتور (طه) .. »

نطقها الوزير فى صرامة ، فانتزعه من أفكاره وذكرياته ، وجعله يرفع عينيه إليه ، فى توتر ملحوظ :

ـ هل ستفتح هذا الممر أم ماذا ؟!

سرت قشعريرة فى جسد (طه) ، وهو يشير إلى معاونيه :

ـ بالطبع يا سيادة الوزير .

لاحظ المعاونون ، وهم يفتحون الباب ، أنه ليس مغطى بالغبار القديم ، على النحو الذى تركوه عليه أمس ، ولكنهم لم يناقشوا هذا ، فى وجود وزير الآثار ..

وانفتح الممر ..

كان بالفعل أعظم كشوف العصر الأثرية ..

جدران الممر المعدنية ، ولفائف البردى التى تملؤه ، وعشرات التماثيل الذهبية ، فى كل ركن منه ، كلها أعلنت أنها ليست مقبرة فرعونية ..

إنها تلك الأسطورة ، التى تصوَّر البعض ، استحالة كونها حقيقة ..

« قاعة الحكمة !! .. »

نطقها (مسعد) فى انبهار ، قبل أن يمسك ذراع (طه) فى قوة ، مستطردًا فى انفعال :

ـ إنها حقيقية !!

لكزه (طه) ، وهو يهمس فى صرامة :

ـ اصمت وتماسك .

صمت (مسعد) بالفعل ، ولكنه ظل يرتجف انفعالا ، وهو يدير عينيه فى المكان مبهورًا ، فى حين غمغم الوزير ، محبوس الأنفاس ، من عظمة ما يراه :

ـ كنت على حق يا دكتور (طه) !!

وربَّت على (طه) فى حرارة ، مستطردًا :

ـ لم يكن ينبغى حضور الصحفيين ووسائل الإعلام المحلية اليوم .

ثم هتف ، ملوِّحًا بذراعيه فى حماس :

ـ كشف كهذا ، يستحق مؤتمرًا صحفيًّا عالميًّا .

غمغم (طه) فى صعوبة :

ـ هذا صحيح .

أدار الوزير عينيه فى المكان ، فى سعادة وانبهار ، قبل أن يتوقف بصره عند بقعة ، خلت تمامًا من الغبار ، على نحو يستحيل منطقيًّا ، فى مقبرة مدفونة منذ آلاف السنين ، وسأل فى صرامة :

ـ ماذا كان يوجد هنا ؟!

وهوى قلب (طه) بين ضلوعه !!!

وبمنتهى العنف !!!

* * *



الفصل الثانى عشر

* **القاهرة مارس ٢٠٢٤م :**

« الأبحاث كلها سليمة .. » ..

نطقها الدكتور (طارق) فى توتر شديد ، جعل الدكتور (محمد) يلتفت إليه ، ويغمغم فى قلق :

ـ لماذا هذا التوتر إذن ؟!

اكتفى (طارق) بإشارة صامتة ، نحو ذلك الناقوس الزجاجى الفارغ ، فهزَّ الدكتور (محمد) رأسه متفهمًا ، ومغمغمًا :

ـ (دودى) ٣ ؟!

تمتم (طارق) :

ـ المفترض أن يظهر بعد دقيقة تقريبًا .

أشار الدكتور (محمد) بدوره إلى الناقوس ، قائلًا :

ـ قلتها بنفسك .. الأبحاث كلها سليمة هذه المرة .

زفر (طارق) ، قبل أن يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ أبحاث لم نقم نحن بها .

أشار بيده ، قائلًا فى حزم :

ـ هذا لا يهم .

صمت كلاهما لحظات ، قبل أن يسأل الدكتور (محمد) فى اهتمام :

ـ كيف كنت واثقًا من أنه لن يعود ؟!

مطَّ (طارق) شفتيه ، وبدا حائرًا ، وهو يغمغم :

ـ لست أدرى .. فقط شعرت بهذا !

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه ، وكأن هذا لم يقنعه ، وتمتم :

ـ قلتها بكل الثقة حينذاك !

زفر (طارق) مرة أخرى ، وبدا وكأنه يعتصر ذاكرته ، وهو يقول فى بطء :

ـ ألم يسبق لك أن مررت بموقف ، بدا لك أنك قد عاينته من قبل ؟!

وافقه الدكتور (محمد) بإشارة من يده :

ـ هذا يحدث لمعظم الناس .. إنها ظاهرة عقلية بصرية ، يطلق عليها اسم (ديجافو)(*) ..

تطلّع (طارق) إليه ، فى صمت حائر ، قبل أن يهز رأسه فى حزم :

ـ الظاهرة أعرفها جيدًا ، واختبرتها فى مواقف عديدة ، ولكن هذا كان يختلف .

سأله فى اهتمام :

ـ كيف ؟!

قبل أن يجيبه (طارق) ، رن منبه المعمل ، فأدار كلاهما عينيه فى لهفة ، نحو الناقوس الزجاجى ، الذى تألق بذلك الضوء الأزرق الباهت ، ثم ظهر الضفدع الجديد فى مركزه !!!

وخفق قلبا الرجلين فى عنف ..

(*) ديجافو : أو (وهم سبق الرؤية) ، والكلمة تعنى بالفرنسية (شوهد من قبل) ، ظاهرة عقلية كشفها العالم (إيميل بويرك) ، وتنقسم لثلاثة أنواع وهى : (تمت زيارته مسبقًا) ، و(تمت رؤيته مسبقًا) ، و(تم الشعور به مسبقًا) ، وترجع الظاهرة إلى شذوذ فى عمل ذاكرة المخ ، مع الإجهاد الشديد .

فالضفدع (دودى ٣) ، أوَّل مسافر عبر الزمن ، عاد من رحلته سليمًا !!! وحيًّا ..

لهث الدكتور (محمد) ، من فرط الانفعال ، وهو يغمغم :

ـ نجحنا .

تمتم (طارق) ، وهو يتجه نحو الناقوس :

ـ فى الخطوة الأولى .

فصل الأجهزة عن الناقوس ، ثم التقط الضفدع من داخله ، وداعبه بسبَّابته ، مستطردًا :

ـ لقد نجحنا فى إرسال كائن من ذوى الدم البارد(*) عبر الزمن .. الخطوة التالية هى نقل كائن ، من ذوى الدم الحار(**) .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ هذا يعنى سنوات أخرى من العمل .

هزَّ (طارق) رأسه ، مغمغمًا :

ـ أو عدة أشهر .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

ـ أو أسابيع .

(*) مصطلح (ذو الدم البارد) ، يصف تلك الكائنات ، ذات الدم متغير الحرارة ، بحيث يتفاعل مع البيئة ، حتى إنه من الممكن أن يتجمَّد ، لو وضع الكائن فى الجليد.

(**) مصطلح (ذو الدم الحار) يصف الكائنات التى تظل حرارة دمها ثابتة ، بغض النظر عن حرارة البيئة المحيطة .

وافقه الدكتور (محمد) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ ولكن تلك الأبحاث ، التى أتى بها (صفوت) بك ، تقول : إن النتيجة تكون واحدة ، فى كل الأحوال ؛ فالخلايا تكتسب قدرة فائقة ، على مقاومة الظروف المحيطة ، حتى لو كانت شديدة البرودة ، أو شديدة الحرارة .

صمت (طارق) لحظات ، ثم قال :

ـ لقد عرَّضنا (دودى ٣) ، لكل ما ورد فى أبحاث الدكتور (رياض) .

قال الدكتور (محمد) فى سرعة :

ـ وعاد سالمًا .

التقط (طارق) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ لم نجر اختباراتنا عليه بعد .

وافقه الدكتور (محمد) مرة أخرى ، ثم زفر متسائلًا :

ـ متى تظن أننا سنستطيع إرسال بشرى عبر الزمن؟!

تنهَّد (طارق) ، وداعب الضفدع بسبَّابته مرة أخرى ، وهو يغمغم :

ـ عشر سنوات من الآن .

لم يدر حتى لماذا نطقها بكل هذه الثقة !! ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، صرخ بأنه على حق ..

ولسبب ما ..

سبب يستحيل عليه فهمه أو إدراكه !! ..

أبدًا !! ..

* * *

* **القطب الشمالى يوليو ٢٠٣٤ م :**

تمامًا، كما توقع (روبرت) ، لم يكد الأمر يبلغ الصحافة والإعلام ، ومسئولى الحكومة ، حتى تحوَّل ذلك المكان ، فى القطب الشمالى ، إلى ما يشبه السيرك ..

عشرات الصحفيين توافدوا على المكان ، الذى كان بالأمس مقفرًا ..

رجال إعلام ، من كل القنوات الأرضية والفضائية ..

وأضيئت الأنوار ، وسطعت مصابيح التصوير ..

حتى وصل رجال الحكومة ..

أربع طائرات هليوكوبتر حربية ، حلَّقت فوق المنطقة ، وقبل حتى أن تهبط ، قفز منها عشرات الجنود المسلحون ، الذين صنعوا نطاقًا حول موقع البحث ، ومنعوا ميكروفونات الإعلام ، ومصابيح التصوير ، غير مبالين بعشرات الاحتجاجات وصيحات الغضب والاعتراض ..

ثم هبطت طائرات الهليوكوبتر ، وخرج منها وزير الدفاع الأمريكى ، ونظيره الكندى ، مع شلة من رجال الأمن ، من الدولتين ..

وفى صرامة ، ودون مصافحة ، اتجه الوزيران نحو (جاك) و(روبرت) ، وقال الوزير الأمريكى فى صرامة :

- أين ذلك الشىء ؟!

أجابه (روبرت) فى حماس :

- على بعد أمتار قليلة يا سيادة الوزير .. لقد حرصنا منذ الكشف على ...

قاطعه الوزير الكندى فى اهتمام :

ـ هل لمسه أحدكما ، أو أى من العاملين هنا ؟!

ازدرد (جاك) لعابه المتوتر ، وهو يجيب :

ـ إنه كما وجدناه تمامًا .

بدا صوت الوزير الأمريكى أشبه بالزمجرة ، وهو يقول :

ـ من منكما أبلغ الصحافة والإعلام ؟!

بدا التوتر على الرجلين ، وغمغم (روبرت) :

ـ هذا كشف القرن يا سيادة الوزير ، وربما أعظم كشف عرفه التاريخ ، ومن حق الـ ..

قاطعه الوزير بإشارة من يده ، وهو يلتفت إلى جنرال عسكرى ، قائلًا فى لهجة آمرة :

ـ اطلب إمدادات ، وأخلوا المنطقة كلها على مسافة كيلومترين .

أجابه الجنرال فى صرامة :

ـ فورًا يا سيادة الوزير .

تبادل (جاك) و(روبرت) نظرة متوترة ، والوزير الكندى يقول :

ـ خذانا إلى موقع الكشف .

قادهما (جاك) و(روبرت) إلى الموقع ، والأوَّل يغمغم فى توتر :

ـ لسنا ندرى كيف وصل إلى هنا ؛ فالمفترض أن سمك الجليد ، فى هذه المنطقة ، يعود إلى مئات الأعوام ؟!

غمغم الوزير الأمريكى فى صرامة :

ـ سنرى .

وصلا إلى موقع الحفر ، وأشار (روبرت) إلى الحفرة :

ـ ها هو ذا .

اقترب الوزيران ، حتى حافة الحفرة ، وتطلعا معًا إلى ذلك الشىء داخلها ، قبل أن ينعقد حاجبا الوزير الأمريكى فى شدة ، فى حين فغر الكندى فاه ، مغمغمًا :

ـ مستحيل !

ولو ارتفعت بالمشهد إلى أعلى ، لشاركتهما ذهولهما حتمًا ..

فما رأياه كان مذهلًا !!!

بكل المقاييس !!!

* * *

• موسكو ١٩٩٧م :

ارتفع رنين الهاتف الأحمر الخاص ، على مكتب الجنرال (تورجنيف) ، فالتقطه فى آلية ، وهو يقول ، فى لهجة حملت لمحة من الصرامة :

ـ من ؟!

أتاه صوت (تشيرنوبروف) ، وهو يهتف فى حماس :

ـ فعلتها يا جنرال .

خفق قلب (تورجنيف) ، وهو يهتف :

ـ حقًّا !!

كانت قد مضت سبع سنوات ، منذ بدأ (تشيرنوبروف) تجاربه ، على آلة الزمن ، التى ظلت لعقود ، مجرَّد فكرة فى رواية لـ(ويلز) ، وبضع معادلات ، فى نظريات (أينشتاين) .. وحتى بعد أن منح (تشيرنوبروف) كل الاعتمادات اللازمة ، لم يكن واثقًا تمامًا ، من أن صنع هذا الشىء ممكن ..

ومع مرور السنين ، راح الاحتمال يتضاءل ..

ويتضاءل ..

وفى الوقت ذاته ، لم ينجح مخلوق واحد ، حتى أعظم الخبراء الأمنيين ، فى حل لغز الاختفاء العجيب لـ (كورياكوف) من زنزانة مغلقة بإحكام ، ومحاطة بأقوى نظم الحراسة والمراقبة والأمن ..

هذا فقط ما كان يدفعه للاستمرار فى تمويل أبحاث (تشيرنوبروف) ..

فعلى الرغم من غرابته ، واستحالة هضمه ، ظل تفسيره هو التفسير الوحيد المتاح ..

ومنذ يومين فحسب ، بدأ التفكير فى أن الأمر قد طال ، أكثر مما ينبغى ، وأن الأفضل أن يوقف تمويل أبحاث (تشيرنوبروف) ، لأنه لم يعد باستطاعته الاستمرار فى إقناع (الكريملين) بمواصلة تمويل مشروع كهذا ..

ولكن فى هذه اللحظة بالذات ، يصله هذا الاتصال ، من (تشيرنوبروف) الذى بدا شديد الحماس ، وهو يقول :

ـ لا بد وأن ترى هذا بنفسك يا جنرال .. لا بد ..

لم تمض نصف الساعة على قوله ، حتى كان (تورجنيف) يقف فى معمل (تشيرنوبروف) محدقًا فى ناقوس معدنى صغير من النحاس ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أهذه هى ؟!

هتف (تشيرنوبروف) فى حماس :

ـ نعم .. سترى بنفسك يا جنرال .

مطّ (تورجنيف) شفتيه ، وقد شعر بالإحباط ، وهو يتطلّع إلى الناقوس النحاسى ، الذى لم يبد له مناسبًا ، لحمل عبارة (آلة الزمن) ..

ولكن حماس (تشيرنوبروف) الشديد ، جعله يلتمس بعض الأمل ، وهو يسأل فى شىء من الحذر :

ـ وهل تعمل ؟!

هتف (تشيرنوبروف) ، وهو يلتقط عملة معدنية :

ـ سترى يا جنرال .

وضع العملة داخل الناقوس ، ثم وضع فوقها قطرة من سائل سريع التطاير ، وهو يقول فى ثقة :

ـ فى الظروف العادية ينبغى أن تتطاير هذه القطرة ، فى خلال سبع ثوانٍ يا جنرال .

أحكم إغلاق الناقوس ، ثم ضغط زرًّا ، وهو يستطرد :

ـ إلا إذا ...

ومض الناقوس النحاسى بضوء أزرق باهت ، تلاشى فى أقل من ثانية ، فانعقد حاجبا الجنرال ، وهو يغمغم فى انفعال :

ـ الضوء الأزرق !!

استعاد شهادة (بوتشكى) القديمة ، وخفق قلبه فى قوة ، و(تشيرنوبروف) يفتح الناقوس ، قائلًا :

ـ والعملة لم تعد هنا ..

غمغم الجنرال ، وهو يكتم انفعاله :

ـ هل ..

لم يستطع إكمال عبارته ، فى حين هتف (تشيرنوبروف) :

ـ انتقلت إلى المستقبل .. نعم يا جنرال .. ذلك الروبل الروسى ، هو أوّل مسافر فعلى عبر الزمن .

حدّق الجنرال فى الناقوس مبهورًا ، ثم عاوده ذلك الشك الأمنى المعتاد ، وهو يقول :

ـ ومن أدرانا أنها لم تتلاش فحسب ؟!

هتف (تشيرنوبروف) :

ـ لأنها ستعود .

ثم نظر إلى ساعته ، مستطردًا :

ـ الآن .

لم يكد ينطقها ، حتى ومض ذلك الضوء الأزرق الباهت مرة أخرى ، ثم تلاشى ؛ فوثب (تشيرنوبروف) إلى الناقوس النحاسى ، ورفعه هاتفًا :

ـ ها هى ذى .

حدَّق الجنرال فى العملة المعدنية ، والقطرة ما زالت عليها ، و (تشيرنوبروف) يشير إليها ، قائلًا فى حماس :

ـ والقطرة لم تتطاير .. هذا يعنى أنه بالنسبة إليها ، لم تمض الثوانى السبع بعد ، أما بالنسبة لنا ؛ فقد مضى ثمانون ثانية .

عاد الجنرال يحدِّق فى العملة ، قبل أن يغمغم :

ـ إذن فقد سافرت عبر الزمن !!

هتف (تشيرنوبروف) :

ـ سافرت لثمانين ثانية ، فى منحنى الزمن .

حمل صوت (تورجنيف) ولهجته شيئًا من خيبة الأمل ، وهو يغمغم :

ـ ثمانون ثانية فحسب ؟! .

أجابه (تشيرنوبروف) مبتهجًا :

ـ إنها البداية فحسب ، وهى أهم خطوة ، فى الأمر كله .. لقد أثبت أن السفر عبر الزمن ممكن ، وكسرت الحاجز بين الخيال العلمى والحقيقة العلمية .. بعد هذا سيكون التطوير أسهل .

سأله الجنرال فى اهتمام بالغ :

ـ وهل سنستطيع إرسال جنودنا ، إلى أية بقعة نشاء عبر الزمن ؟!

تردَّد (تشيرنوبروف) لحظة ، ثم غمغم :

ـ ليس بهذه السرعة .

اعتدل الجنرال ، وارتسمت خيبة الأمل على وجهه فى وضوح ، على نحو خفق معه قلب العالم الروسى ..

فخيبة الأمل هذه ، قد تتسبَّب فى توقف مشروعه ، الذى يراه أعظم كشف علمى عرفه التاريخ ..

حتى تلك اللحظة ..

على الأقل ..

* * *

* الجيزة مايو ٢٠١٩م :

« لست أدرى كيف حدث هذا ؟! .. »

نطقت زوجة (طه) العبارة ، فى مزيج من الخوف والحيرة والارتباك ، قبل أن تهز رأسها فى قوة ، وتستطرد فى صوت مرتجف :

ـ لقد غادرنا عيد الميلاد ، وجئنا مباشرة إلى هنا .

سألها فى توتر :

ـ ألم يحدث أى شىء غير طبيعى ؟!

حاولت اعتصار ذهنها ، وهى تتمتم :

ـ لست أذكر شيئًا بالتحديد .

اندفعت ابنتهما :

ـ وذلك الوميض ؟!

التفت إليها (طه) فى لهفة :

ـ أى وميض ؟!

بدا وكأن الزوجة قد تذكّرت شيئًا ، وهى تقول :

ـ كان ضوء سيارة قادمة ، من الاتجاه المضاد على الأرجح !!

قالت الابنة فى إصرار :

ـ لم تكن هناك أية سيارات قادمة .

ثم حمل صوتها بعض الاضطراب ، وهى تضيف :

ـ إلا بعد الوميض .

اتجه (طه) نحو ابنته ، وربّت على كتفها ، محاولًا تهدئتها ، وهو يسألها فى توتر ، بدا واضحًا فى صوته ، على الرغم من محاولته إخفائه :

ـ كيف كان الأمر؟! .. حاولى تذكُّر كل شىء .

بدت الابنة حائرة مرتبكة ، وهى تقول :

ـ كان الطريق شبه خالٍ ، عندما ومض أمامنا وميض أزرق باهت سريع ، كما لو أنه آتٍ من مصباح تصوير ، وبعدها كدنا نرتطم بسيارة ، ظهرت أمامنا فجأة .

انعقد حاجباه فى شدة ، مغمغمًا :

ـ ظهرت فجأة ؟!

لوّحت الابنة بذراعيها ، وهى تقول فى انفعال :

ـ كل شىء ظهر فجأة ، عقب ذلك الوميض الأزرق الباهت .. سيارات تسير فى اتجاهنا ، وأخرى فى الاتجاه المضاد .. وكثيرون أطلقوا أبواق سياراتهم ، كما لو أن وجودنا أزعجهم فجأة .

هتفت الزوجة ، فى انفعال مماثل :

ـ بالطبع .. هذا ما حدث بالفعل .

وازداد انعقاد حاجبى (طه) ..

كيف يمكن تفسير هذا ؟! ..

إنه يعرف ذلك الوميض الأزرق جيدًا ..

سبق له أن لمح مثله ..

فما الذى يمكن أن يعنيه ؟! ..

وما صلة ذلك الغامض الأنيق به ؟! ..

و ...

« لم تجب يا دكتور (طه) .. »

انتزعه صوت الوزير من ذكرياته ، فرفع عينيه إليه ، وقال فى توتر ، لم يفارق عقله بعد :

ـ أقول : إننى أرفض مجرّد الاتهام .. لقد فتحت الممر لأوّل مرة ، فى وجودكم جميعًا .

مال الوزير نحوه فى صرامة :

ـ أكانت هذه أوّل مرة تفتحه ؟!

هتف فى غضب :

ـ أرفض هذا السؤال أيضًا .

ثم نهض فى صرامة ، مستطردًا فى حدة :

ـ سيادة الوزير ، لو أنك تمتلك السلطة ، بحكم موقعك ، فأنا أمتلك المصداقية والشهرة الدولية ، بحكم علمى وخبرتى ، وعضويتى بكل جمعيات الآثار العالمية ، ولو أنك ترغب فى إفساد أعظم كشف عرفه التاريخ ، بتوجيه اتهامات ، لا أساس لها من الصحة ، ولا يوجد أدنى دليل على ارتباطى بها ، فافعل ، أو تقبّل استقالتى ، وعليك عندئذ الرد عن الاتهامات ، التى سأوجهها أنا لك ، فى المؤتمر الصحفى ، الذى سأعقده عالميًّا ، فور قبول استقالتى .

تراجع الوزير فى توتر :

ـ ومن تحدث عن استقالة أو إقالة ؟! .. إنه استجواب ودى فحسب .

هتف (طه) :

ـ اجعله رسميًّا إذن ، أو أغلقه .

ثم اندفع نحو الباب ، مستطردًا :

ـ وحتى ذلك الحين ، أنا فى منزلى .

غادر المكتب ، وأغلق الباب خلفه فى عنف ، تاركًا الوزير فى حيرة شديدة التوتر ..

إنه كشف العمر بالفعل ..

وربما أعظم الكشوف الأثرية ، عبر كل العصور ..

ومن المستحيل إفساد أمر كهذا ، والإساءة إليه عالميًّا ..

وفى الوقت ذاته ، هناك غرض مفقود ، من داخل قاعة الحكمة ..

غرض ، ترك خلفه أثرًا واضحًا ..

فكيف يمكن تفسير هذا عالميًّا ومحليًّا ، دون توجيه اتهامات لأحد ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

* * *

*** زيورخ ، يناير ٢٠٠٠م :**

لدقيقة كاملة ، عجز (ألكسندر كورباكوف) عن استيعاب ما يراه !! ..

من المستحيل أن يكون هذا حقيقيًّا !! ..

من المستحيل تمامًا !! ..

على الرغم من أبحاثه ، التى استغرقت عمرًا ، لم يكن يتوقَّع أن يراه رأى العين !! ..

« إنه هو يا رجل .. صدِّق عينيك » ..

غمغم (كورباكوف) ، وهو يواصل التحديق ذاهلًا :

ـ مستحيل !! ..

ابتسم ذلك الغامض ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ ولكنه حقيقة أمام عينيك .

تردَّد (كورباكوف) ، وشعر بقشعريرة تسرى فى جسده ، وهو يمد أصابعه المرتجفة ، نحو الوعاء ومحتوياته ..

« زئبق أحمر .. » ..

قالها الرجل فى هدوء ، جعل (كورباكوف) يتمتم :

ـ إذن فهو حقيقة .

أشار الرجل بيده :

ـ لا تقل إنك قد أفنيت عمرك فى البحث عن شىء ، تشك فى وجوده .

غمغم (كورباكوف) :

ـ لست وحدى من فعل .. علماء عديدون أفنوا أعمارهم ، على أمل الحصول عليه(*) .

مال الرجل إلى الأمام :

ـ وها هو ذا أمامك .

التفت إليه (كورباكوف) فى انفعال :

ـ كيف حصلت عليه؟!

حملت شفتا الرجل ابتسامة غامضة ، وهو يجيب :

ـ من أجدادى .

ردَّد (كورباكوف) فى دهشة :

ـ أجدادك ؟!

ثم استطرد فى انفعال :

ـ أجدادك كان لديهم كل هذه الكمية منه ؟!

اكتفى الرجل بهز كتفيه ، والإشارة بيده ، فتابع (كورباكوف) ، وانفعاله يتزايد :

ـ وكيف أمكنهم صنعه ؟!

هزَّ الرجل رأسه :

ـ لست أظن أنهم من صنعوه .

(*) حقيقة .

هتف (كورباكوف) :

ـ مَن إذن ؟!

لوّح الرجل بكفه :

ـ مَن جاءوا قبلهم .. أو مَن جاءوا إليهم .

لم تكن إجابة شافية ، ولكن (كورباكوف) اكتفى بها ، وهو ينتقل إلى سؤال آخر :

ـ وكيف حصلت أنت عليه ؟!

ابتسم الرجل :

ـ من عالم آثار .

انعقد حاجبا (كورباكوف) فى شدة :

ـ عالم آثار ؟! .. وما شأن علماء الآثار بهذا ؟!

ألقى الرجل نظرة على ساعته الكبيرة ، قائلًا فى صرامة :

ـ هل ستضيع الوقت فى أسئلة الاستجواب هذه ، مثل كل مرة ؟! .. تعلم أن وقتى قصير هنا .

أشار (كورباكوف) إلى الجدار ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل ستتلاشى عند الجدار ، مثل المرة السابقة ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا فى صرامة :

ـ أنت تعلم أننى مضطر .

انفرجت شفتا (كورباكوف) ، وكأنه يهمُّ بقول شىء ما ، ثم عاد يضمهما لحظة ، ثم سأل ، فى صوت ضعيف :

ـ ما دمت تملك كل هذه الكمية ، من الزئبق الأحمر ؛ فما حاجتك إلىَّ ؟!

قال الرجل فى حزم :

ـ أنت تعلم أنه وسيلة لا غاية .

انعقد حاجبا (كورباكوف) ، وعاوده توتره ، وهو يقول :

ـ اسمع يا هذا ، لو أنك تسعى لصنع سلاح تدميرى شامل ، فأنا لن ...

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ ليس هذا ما أسعى إليه .. أعلم أن الكل يسعى خلفه لهذا الغرض ؛ لما يحويه من طاقة هائلة ، تجعلك تستطيع صنع قنبلة ذرية ، تبلغ أضعاف قوة القنابل الذرية الحالية ، وفى حجم برتقالة عادية(*) ، ولكن ما أحتاج إليه بالفعل ، هو الطاقة الهائلة ، التى يمكن أن ينتجها الزئبق الأحمر ، فى أغراض علمية بحتة .

غمغم (كورباكوف) فى عصبية :

ـ علمية فقط ؟!

مال الرجل عبر مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ من تحاول أن تخدع يا رجل ؟! .. هل تصوَّرت أن السوفيت ، الذين عملت لحساب جيشهم سنوات ، كانوا يدفعونك للبحث عن الزئبق الأحمر ، لأغراض مدنية ؟!

صدمت الحقيقة (كورباكوف) ، فتمتم فى ألم :

ـ كنت مضطرًّا .

نهض الرجل ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

(*) حقيقة علمية افتراضية .

ـ كما أنت الآن .

سرى توتر شديد ، فى كيان (كورباكوف) ..

لقد انتقل من سجن إلى سجن ..

ولكن هذا السجن أخطر وأشر ألف مرة ..

وهو لا يملك سوى الطاعة ..

وبلا مناقشة ..

وفى صوت متخاذل ، غمغم :

ـ وما الذى تريده بالضبط ؟!

جاوبه ذلك الضوء الأزرق الباهت فحسب ..

وعندما رفع عينيه إلى حيث كان يقف الرجل ، كان المكان خاليًا !!!

تمامًا !!!

* * *



الفصل الثالث عشر

*** كيبيك ، سبتمبر ٢٠٣٤م :**

لم يبد صوت الوزير الكندى مرتاحًا إلى ذلك الجسم الكريستالى الكبير ، الذى تم نقله إلى مركز الأبحاث الحيوية فى (كيبيك)(*) ، مغمغمًا :

ــ ولماذا هنا ؟! .. لماذا لم يتم نقله إلى أحد مراكزكم فى الولايات المتحدة ؟!

أجابه الوزير الأمريكى فى حزم :

ــ هذا المركز كان الأقرب ، ثم إن الناس فى (كندا) ، أقل فضولًا منهم فى (أمريكا)(**) .

وصمت لحظة ، وهو يتطلّع إلى ذلك الجسد بشرى الهيئة ، داخل ذلك الجسم الكريستالى ، قبل أن يتابع :

ــ والمركز الأحيائى لديكم هنا أفضل .

هزّ الكندى رأسه ، وكأنه يحاول هضم الأمر ، ثم قال ، فى صوت يمزج بين الانزعاج والتوتر :

ــ فريق العلماء المشترك ، يشعر بحيرة بالغة ، إزاء هذا الأمر .

تمتم الأمريكى فى توتر ملحوظ :

(*) كيبيك : أكبر المقاطعات الكندية مساحة ، بعد (نونافوت) ، عاصمتها مدينة (كيبيك) ، وأهم مدنها (مونتريال) ، تقع شرق (كندا) ، بين (أونتاريو) ومقاطعات المحيط الأطلسى ، واللغة الرسمية فيها هى الفرنسية .

(**) حقيقة .

ـ لهم كل الحق فى هذا .. الجيولوجيون أكدوا ، بما لا يدع مجالًا للشك ، أن ذلك الجليد قد تكوَّن منذ مئات السنين ، وعلى الرغم من هذا ، فذلك الشخص ، بداخل الجسم الكريستالى ، الشبيه بالمكعب ، يرتدى حلة حديثة ، ورباط عنق ، من إبداع (لوران) !!!

عاد الكندى يهز رأسه ، مغمغمًا :

ـ لغز جديد ، سيوضع إلى جوار ألغاز الأرض الشهيرة(*) .

تنهد الأمريكى :

ـ ولكنه يفوقها غموضًا .

تمتم الكندى :

ـ هناك حتمًا تفسير علمى .

أومأ الأمريكى برأسه :

ـ حتمًا ، ولهذا ففور اكتمال ذوبان الجليد عن ذلك الجسد ، سيقوم فريق من العلماء بفحصه وتشريحه فى محاولة لتفسير وجوده تحت تلك الطبقة من الجليد .

سأله الكندى :

ـ وماذا عن (جاك) و(روبرت) ؟!

أجابه الأمريكى فى صرامة :

ـ لن يصرِّحا بأى جديد للصحافة .. كن واثقًا من هذا .

(*) أشهر ألغاز الأرض التى بقيت دون تفسير حاسم ، الأطباق الطائرة ، ومثلث (برمودا) وانفجار (سيبيريا) ، وبطارية (بغداد) ، وغيرها .

التفت إليه متسائلًا :

ـ هل أقنعتهما بالصمت ؟!

كتم الأمريكى ابتسامة باهتة على شفتيه ، وهو يجيب :

ـ بل فعلنا ما هو أكثر ضمانة .

نطقها فى لهجة ، سرت معها قشعريرة باردة ، فى جسد الوزير الكندى ..

وفى أعماق توتره ، تفجَّر السؤال ..

ترى ماذا فعلوا بالرجلين ؟! ..

ماذا ؟! ..

* * *

* الجيزة ، يناير ٢٠٢٠م :

التهبت الأكف بالتصفيق ، عندما صعد الدكتور (طه عبد الودود) ، على المنصة ؛ ليتسلم وسام الجمهورية ، من الطبقة الأولى ؛ بسبب كشفه العظيم ، الذى أبهر العالم كله ، وفجَّر الكثير من المعلومات ، القادرة على تغيير التاريخ المكتوب ، إلى الأبد ..

كان يشعر بتوتر بالغ فى أعماقه ، على الرغم من التكريم والتشريف ؛ لأن ذهنه كان يستعيد كلمات ذلك الغامض ..

« قبل نهاية هذا العقد ، سيذيع صيتك .. »

ذلك الغامض له أكبر الفضل فى حصوله على هذا التكريم ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد اختفى ، فور حصوله على ذلك الوعاء ، الذى لا يمكنه حتى تخيُّل ما كان يحويه ، وخاصة بعد الكشوف المذهلة ، التى حوتها قاعة الحكمة ..

ولقد درس هو كل النصوص ، التى أمكنه دراستها ، مما عثر عليه داخل تلك القاعة ، ولم يستطع الجزم بمحتوى ذلك الوعاء المفقود ..

ولا هوية ذلك الغامض ، الذى اختفى تمامًا ، وكأنه لم يوجد أبدًا !!

تسلَّم الوسام ، وصافح رئيس الجمهورية ، وهو يختلس النظر إلى ابنته وزوجته ، اللتين تجلسان سعيدتين فى الصفوف الأولى ، وقد نسيتا ، أو تناسيتا كل الأحداث العجيبة ، التى أضاعت يومين من حياتهما ، فى ثانية واحدة !!

أما الوزير ، الذى يجلس إلى جوارهما ، فقد رمقه بنظرة حادة ، وكأنه يبلغه ، أن الشك ما زال يراوده ، بخصوص ذلك الفراغ الخالى من الغبار داخل القاعة ..

ولكنه لم يكن يملك قولا ، وهو يشاهد (طه) يتسلم الوسام ، من رئيس الجمهورية مباشرة ..

(مسعد) أيضًا ، التهبت كفاه بالتصفيق ، وهو يشعر بسعادة جمة ؛ لأن ما ظل يؤمن به طويلا ، صار حقيقة أثرية وعلمية ، ربما يحتاج علماء الآثار عقودًا ، قبل حل كل ألغازها ..

وعقب الحفل ، التقى كل هؤلاء ، فى قاعة الاحتفالات ، لتناول الأطعمة والمشروبات ، فمال الوزير على أذن (طه) ، مغمغمًا فى توتر :

ـ أترى أنك تستحق بالفعل هذا الوسام ؟!

أجابه (طه) فى صرامة :

ـ يمكنك طرح هذا السؤال على فخامة رئيس الجمهورية .

احتقن وجه الوزير ، وحمل صوته المزيد من التوتر :

ـ سأجرى تحقيقًا رسميًا بشأن الغرض الضائع من المقبرة .

تطلّع (طه) إلى عينيه فى تحدٍّ :

ـ افعل يا سيادة الوزير .. وحاول أن تفسر أثناء التحقيق ، لماذا لم تنقل آلات التصوير والمراقبة صورة أى شخص اقترب من المقبرة قبل افتتاحها الرسمى فى حضورك .

ازداد احتقان وجه الوزير ، وهو يعتدل ، قائلًا فى عصبية :

ـ هناك تفسير ما حتمًا .

أجابه (طه) وهو يبتعد عنه لينضم إلى عائلته ومساعده :

ـ جد التفسير أوّلا ، قبل أن تتهمك الصحافة بأنك تغار من كشفى العظيم .

كادت الدماء تتفجّر من وجه الوزير ، وهو يراقبه يبتعد ، فى لا مبالاة .. والواقع أنها كانت لا مبالاة ظاهرية فحسب ..

فعقل (طه) كان يغلى بالفعل ، بكل تلك الأسئلة ..

كيف تم محو كل شىء ، من كاميرات المراقبة ؟! ..

وكيف ولماذا ، اختفى ذلك الغامض تمامًا ، بعد حصوله على ذلك الوعاء ؟!

بل والأهم هو : ما الذى كان يحويه ذلك الوعاء ؟! ..

ماذا ؟! ..

ماذا ؟! ..

ماذا ؟! ..

***

* زيورخ، ٢٠٠٣م :

التقط (كورباكوف) نفسًا عميقًا ؛ فى محاولة لتهدئة انفعاله ، وهو يلقى جسده على مقعد كبير ، ويشير إلى جهاز فى حجم كرة سلة ، قائلًا :

ـ ها هى ذى .

تطلَّع ذلك الرجل إلى الجهاز ، وهو يقول فى شغف :

ـ وهل يمكنه توليد الطاقة المطلوبة ؟!

أومأ (كورباكوف) برأسه إيجابًا ، وتنهَّد مجيبًا :

ـ يمكنه توليد طاقة تكفى إنارة (زيورخ) لثلاثة أيام كاملة .

هتف الرجل فى حماس :

ـ عظيم .

ونهض يلتقط الجهاز ، فاستوقفه (كورباكوف) فى توتر :

ـ لم تخبرنى بعد من أنت .

توقَّف الرجل ، وتطلَّع إليه لحظة ، قبل أن يقول فى شىء من الصرامة :

ـ أخبرتك أننى لن أستغل هذا فى أية أعمال تدميرية .

كرَّر (كورباكوف) فى صرامة :

ـ ولكنك لم تخبرنى من أنت ، وإلى أية جهة تنتمى ؟!

قال الرجل فى صرامة :

ـ وأى فارق يصنعه هذا ؟!

هزَّ (كورباكوف) رأسه ، وقال فى عصبية :

ـ لو أنه لا يصنع فارقًا ؛ لأخبرتنى دون تردُّد .

صمت الرجل بضع لحظات ، ثم قال فى قسوة :

ـ كنت ستلقى مصرعك فى ذلك القبو ؛ لأنهم لم يقدروا موهبتك حق قدرها ، ولكننى أنقذت حياتك .

قال (كورباكوف) فى توتر :

ـ ونقلتنى إلى هنا ، عبر عشر سنوات ، وعبر الزمان والمكان .

أجابه الرجل فى صرامة قاسية :

ـ ومنحتك هوية جديدة ، يستحيل كشف زيفها ، لأكثر من عشرين عامًا قادمة ، ومعملًا يحلم به أى عالم ، وثلاثة ملايين دولار ، قادرة على منحك حياة رغدة ، ما تبقى لك من العمر ؛ فما الذى تنشده ، بعد كل هذا ؟!

قال فى حزم :

ـ ما ينشده كل عالم فى الوجود ، منذ بدأ عصر العلم .. المعرفة .

تنهَّد الرجل فى حرارة ، وسأله :

ـ هل تريد حقًّا أن تعرف ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى انفعال :

ـ نعم .. ولن يدهشنى شىء مما ستقوله ، بعد ما رأيته من عجائب انتقالك عبر الزمان والمكان .

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

ـ وما الذى تريد معرفته ، أكثر من هذا ؟!

أجابه فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال :

ـ الهدف ؟!

انعقد حاجبا الرجل طويلا ، وهو يتطلَّع إلى (كورباكوف) ، مغمغمًا :

ـ الهدف ..

صمت لحظات أخرى ، وكأنه يتخذ قرارًا ، ثم سحب مقعدًا ، وجلس أمام (كورباكوف) ، وهو يقول :

ـ لم تعد لديك قطرة باقية من الزئبق الأحمر ، ودورك فى اللعبة انتهى ، ولست أظن أحدًا سيصدقك ، لو رويت ما سأخبرك به .

غمغم (كورباكوف) فى لهفة :

ـ إذن فستخبرنى ؟

التقط الرجل نفسًا عميقًا ، ثم قال فى حزم :

ـ اشحذ أذنيك وعقلك وكيانك إذن .. فسأخبرك .

وراح يخبره بما لديه ..

وعلى الرغم من كل ما توقعه (كورباكوف) وما اختبره ؛ كانت الحقيقة بالنسبة إليه صدمة قاسية ..

للغاية !!!

* * *

* القاهرة ، نوفمبر ٢٠٢٦م :

« هل تتوقع أن يصدق أحد روايتك ، يا أستاذ (إبراهيم) ؟.. »

ألقى النائب العام سؤاله هذا على (إبراهيم) فى لهجة استهجانية مستنكرة أثارت توتر هذا الأخير أكثر ، وهو يقول :

ـ ولكنها الحقيقة ، التى اختبرتها بنفسى ، يا سيادة النائب .

لوّح النائب العام بذراعه كلها فى استهجان ، هاتفًا :

ـ مسافر عبر الزمن ، يصنع ثروات طائلة من التجوُّل عبر الماضى والمستقبل !!! .. إنها رواية خيال علمى ساذجة يا رجل !!! ... رواية لن تنجح ، حتى فى أفلام السينما .

قال (إبراهيم) فى عصبية :

ـ الأمر يحتاج إلى القليل من الخيال فحسب .

هتف النائب العام :

ـ قليل ؟! .. إنها أطنان من الخيال ، الذى لا يستند إلى أى دليل ، بخلاف إصرارك المستميت على تجريم (صفوت خورشيد) ، منذ بدأت قضيته .

هزّ (إبراهيم) رأسه فى يأس ، وهو يقول :

ـ الرجل زارنى فى مكتبى .. بل ظهر فجأة داخله ، واعترف لى بكل شىء ، ولقد سجّلت اعترافه ..

هتف به النائب العام :

ـ ولم يحو التسجيل المزعوم ، الذى قدّمته ، لا صوته ولا صوتك .. لم يحو أى شىء .

قال (إبراهيم) فى انفعال :

ـ لأنه محاه .

زفر النائب العام ، وضرب سطح مكتبه براحته ، قائلًا بكل صرامة :

ـ كفى يا أستاذ (إبراهيم) .. كفى ..

هتف فى يأس :

ـ ولكن يا سيادة النائب ..

قاطعه بكل الغضب :

ـ لا أريد لكن .. ولا أريد حتى سماع كلمة واحدة فى هذا الأمر... لا الآن ، ولا فيما بعد .

حاول (إبراهيم) أن يقول شيئًا ، ولكن النائب العام استوقفه بإشارة صارمة من يده ، وهو يتابع ، فى صرامة غاضبة :

ـ هذه القضية أغلقت ، وصدر فيها حكم نهائى ، منذ أشهر طويلة ، وما زلت ترفض الاستسلام لقرار المحكمة .

ثم تراجع فى مقعده ، وأضيفت إلى صوته لمحة قاسية ، مع استطرادته :

ـ ولو واصلت الإصرار على تلك الرواية الخرافية ، وإزعاج المجتمع بها ، لن يكون أمامى سوى إحالتك إلى المستشفى ؛ لفحص قواك العقلية .

اتسعت عينا (إبراهيم) ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !

ثم نهض ، مستطردًا بكل التوتر :

ـ فليكن يا سيادة النائب .. لقد حاولت .. وفشلت .. وأنا أعترف بهذا الفشل ، وأعدك ألا أعود إلى هذا الأمر ثانية .

انعقد حاجبا النائب العام ، بكل الغضب والصرامة ، وهو يقول :

ـ هذا أفضل .. للجميع .

غادر مكتب النائب العام للمرة الأخيرة ، مع غصة ضخمة ، تكاد تكتم أنفاسه ، وتسد حلقه إلى الأبد ..

وبينما يقود سيارته فى يأس ، راح يستعيد آخر لقاء له ، مع ذلك الغامض ..

« الوسيلة التى خدعت بها الجميع ، لا يمكن كشفها ، أو حتى تصوُّرها أبدًا .. »

قالها الرجل فى ثقة متباهية ، جعلت (إبراهيم) يسأله فى شغف ، وهو يضغط زر جهاز التسجيل الرقمى الدقيق :

ـ أية وسيلة ؟!

مال الرجل نحوه ، وتألقت عيناه ، وهو يجيب :

ـ السفر .. السفر عبر الزمن .

حدّق فيه (إبراهيم) ، وخيِّل إليه أنه لم يسمع الجواب جيدًا ، فتمتم :

ـ سفر ماذا ؟!

مال عليه الرجل أكثر :

ـ السفر عبر الزمان والمكان .. ذلك الحلم ، الذى أثار خيال الملايين ، منذ رواية (ويلز) .

تمتم (إبراهيم) ، وهو ما زال يحدّق فيه :

ـ هل تسخر منى ؟!

تراجع الرجل ، وهو يطلق ضحكة عالية ظافرة ، قبل أن يقول :

ـ هذا بالضبط ما سيتهمونك به ، إذا ما أخبرتهم بالأمر .

هزَّ (إبراهيم) رأسه ، وهو يقول :

ـ ولكن السفر عبر الزمن مجرَّد خيال ، لم يتحقَّق أبدًا .

أشار الرجل بسبَّابته ، وعيناه تتسعان مرة أخرى :

ـ حتى هذا العصر .. أما فى العصور القادمة ، فالخيال سيصبح حقيقة .

انعقد حاجبا (إبراهيم) ، وهو يسأله متوترًا :

ـ أتريد أن تقول : إنك قادم من الـ ...

لم يستطع إكمال عبارته ، فأجابه الرجل فى حزم :

ـ من المستقبل .. مستقبلكم .

حدَّق فيه (إبراهيم) ثانية ، وكأنه يحاول أن يجد فيه ما يؤيِّد قوله ، وأدرك الرجل هذا ؛ فارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يقول :

ـ السفر عبر الزمكان ليس سهلا ، وهو يحتاج إلى أموال طائلة ، وطاقة هائلة ، وعقول جبارة .

تمتم (إبراهيم) ، وصوته يختنق فى حلقه :

ـ لهذا ابتعت أرض (مدينة نصر) ؟!

هزَّ الرجل كتفيه ، ولوَّح بكفه ، ومطَّ شفتيه ، وهو يقول :

ـ كانت هذه أبسط خطوة .. السفر إلى الماضى ، وشراء قطعة من صحراء ، أعلم أنها ستساوى المليارات فيما بعد .

ثم عاد يميل نحو (إبراهيم) ، متابعًا فى ظفر :

ـ وهناك أيضًا عدد كبير ، من أسهم شركات عملاقة ، ابتعت أسهمها ، عندما كانت بعد شركات صغيرة ، وأسهمها رخيصة .. (أبل) ، و(مايكروسوفت) ، و(فايزر) ، وغيرها .

حاول (إبراهيم) أن يزدرد لعابه ، وهو يتمتم :

ـ هكذا حصلت على الأموال الطائلة ؟!

أومأ برأسه :

ـ بالضبط .. وبقيت الطاقة الهائلة ، التى حصلت عليها من أجدادنا .

غمغم (إبراهيم) ، فى حيرة مندهشة :

ـ أجدادنا ؟!

أطلق الرجل ضحكة قصيرة ظافرة ، وقال :

ـ بمعنى أدق ، ما كان لدى أجدادنا القدامى .

ثم مال نحو (إبراهيم) مرة أخرى مكملا ، وعيناه تتألقان فى شدة :

ـ الزئبق الأحمر .

كاد (إبراهيم) يقفز من مقعده ، وهو يهتف :

ـ الزئبق الأحمر؟! .. أهو حقيقة ؟!

أومأ الرجل برأسه :

ـ الأقدمون حصلوا عليه ، من حضارة سابقة ، أو من كائنات زارت الأرض ، منذ آلاف السنين !

جف حلق (إبراهيم) ، وهو يسأله :

ـ وكيف حصلت عليه ، ولم نحصل نحن عليه ؟!

التمعت عينا الرجل ، مجيبًا :

ـ كنتم ستحصلون عليه ، كما قال التاريخ المكتوب ، قبل أن أغيره أنا ، وأحصل عليه ، قبل أن يكشف رسميًّا .

قال (إبراهيم) فى انفعال :

ـ التاريخ لا يذكر هذا .

ثم استدرك فى حدة :

ـ ثم إن تغيير التاريخ مستحيل !

قهقه الرجل ، قائلًا :

ـ هذا ما قرأته ، وما قاله العلماء ، الذين لم يسافروا قط عبر الزمن ، ولم يختبروا أبدًا هذه القوة الهائلة .

شحب وجه (إبراهيم) ، وهو يهمس ، من شدة جفاف حلقه :

ـ هل تعنى أنه كان هناك تاريخ آخر ، غير الذى نعرفه ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالفعل .

صمت (إبراهيم) لحظات ذاهلا ، يحدِّق فى وجه الرجل غير مصدق ، وحلقه يزداد جفافًا ، ثم لم يلبث أن تمتم فى شحوب :

ـ تستطيع تغيير التاريخ إذن ؟!

أجابه فى زهو :

ـ ألم أخبرك أنها قوة هائلة ؟!

تمتم (إبراهيم) ، وصوته يزداد شحوبًا :

ـ لماذا لا تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، وتنقذ حياة الملايين إذن ، أو حتى إلى ...

قاطعه الرجل ، وهو يلقى نظرة على ساعته الكبيرة :

ـ هذا ما أسعى إليه .

سأله (إبراهيم) :

ـ أتعنى أنك لم تتوصل إليه بعد ؟!

تنهّد الرجل ، وقال :

ـ للأسف أنا لست عالمًا .. ولست حتى من اخترع آلة الزمن .

بدا صوت (إبراهيم) مسموعًا بالكاد ، وهو يتمتم :

ـ من صنعها إذن ؟!

تطلّع إليه الرجل ، ثم إلى ساعته ، ونهض قائلًا :

ـ سأترك هذا لخيالك .

اتجه مباشرة نحو الركن ، وهتف به (إبراهيم) ، فى صوت مختنق :

ـ انتظر ..

ولكن الرجل تألق بذلك الضوء الأزرق الباهت ، ثم تلاشى فى الركن .. وإلى الأبد هذه المرة ..

فمنذ ذلك اللقاء ، لم يعد لزيارته مرة ثانية ..

على الإطلاق ..

* * *

* القاهرة ، يناير ٢٠٣٠م :

سعل الدكتور (محمد) مرتين ، وهو يضع راحته على صدره ، ثم قال فى ضعف واضح :

ـ أظننا بلغنا نهاية المطاف ، يا (طارق) .

زفر (طارق) ، وتهالك على أقرب مقعد إليه ، وهو يتمتم :

ـ يبدو ذلك .

وصمت لحظات ، ثم لوَّح بكفه ، مستطردًا :

ـ لقد حققنا الكثير ، عبر كل تلك السنوات ، والآن يمكننا نقل أحد الثدييات عبر الزمن ، فى حدود مائة عام .. أما البشر ..

هزَّ رأسه فى يأس ، وكأنما يكمل بهذا عبارته ، فسعل الدكتور (محمد) مرة أخرى ، وقال :

ـ كل ما يمكننا الحصول عليه من طاقة ، لا يكفى لإرسال بشرى ناضج .

انعقد حاجبا (طارق) ، وهو يقول فى حزم :

ـ لم نختبر هذا بعد .. ولكن كقاعدة علمية ، ما دمنا استطعنا إرسال أحد الثدييات المتطوِّرة(*) عبر الزمن ، وإعادته سالمًا ، فليس هناك ما يمنع ، نظريًّا من فعل هذا مع بشرى(**) .

(*) الثدييات : فرع حيوى من عالم الحيوان ، من ذوى الدم الحار ، حيث يعمل دماغ تلك الفصيلة ، على الحفاظ على درجة حرارة الجسم والدورة الدموية ، وتتميز تلك الفصيلة بوجود ثلاث عظمات صغيرة ، فى الأذن الوسطى ، وبالغدد الثديية فى الإناث.

(**) حقيقة علمية .

سعل الدكتور (محمد) ، وهو يقول فى ضعف :

ـ اختبار هذا على بشرى ، فعل مجرَّم قانونيًّا .

أشار (طارق) بسبَّابته ، وهو يقول ، فى تفكير أقرب إلى الشرود :

ـ إلا لو تطوَّع بإرادته .

انعقد حاجبا الدكتور (محمد) فى شدة متوترة ، وهو ينهض ، مستندًا إلى طاولة المعمل :

ـ إياك أن يكون هذا ما تفكِّر فيه .

مالت الطاولة ، مع ضغط يده ، وانزلقت قارورة من فوقها ، فهتف (طارق) ، وهو يثب من مقعده ؛ محاولًا التقاطها ، قبل أن ترتطم بالأرض :

ـ احترس !

ولكن القارورة سبقته ، وارتطمت بالأرض ، و ...

ودوى الانفجار ..

وفى عنف ، اندفع جسد (طارق) إلى الخلف ، وبدت له ألسنة اللهب ، تنتشر فى كل مكان من المعمل ..

ثم فجأة ، انتفض جسده فى عنف ..

« إياك أن يكون هذا ما تفكِّر فيه .. »

قالها الدكتور (محمد) ، وهو يهم بالنهوض ، ويمد يده ، ليستند على تلك الطاولة ؛ فهتف (طارق) ، وهو يثب نحو الطاولة :

ـ احترس .

ولكن الدكتور (محمد) كان قد استند إلى الطاولة بالفعل ..
وانزلقت القارورة ..

والتقطتها يد الدكتور (طارق) ، الذى خفق قلبه فى شدة ، وهو يعيدها فى حرص إلى مكانها على الطاولة ، قائلا :

ـ كدت تقتلنا يا دكتور (محمد) .

امتقع وجه الرجل ، ولهث وسعل ، وهو يغمغم :

ـ هذا ما أريد التحدُّث معك بشأنه .

التفت إليه بنظرة متسائلة ؛ فتابع فى أسى :

ـ أنت تحتاج إلى من هو أكثر شبابًا منى ؛ للاستمرار فيما تقوم به .

غمغم (طارق) :

ـ لا يمكننى الاستغناء عنك يا دكتور (محمد) .

تنهَّد الرجل ، ولوَّح بكفه :

ـ ستفعل هذا ، إن عاجلًا أو آجلًا .. فقد تجاوزت السبعين من العمر ، وصرت ألهث مع أقل جهد .. إنه السن يا ولدى .

حمل صوت (طارق) كل الحزن والأسى ، وهو يقول :

ـ ومن يمكنه أن يحل محلك يا دكتور (محمد) ؟! .. أنت أعظم عالم فيزيائى عرفته يومًا .

تنهَّد الدكتور (محمد) مرة أخرى ، وقال فى ضعف :

ـ لا يوجد مَن لا يمكن تعويضه يا رجل .. هذا مبدأ علمى .. ستجد حتمًا من يمكنه أن يعاونك ، أو ...

قاطعه رنين جرس الباب المفاجئ ؛ فالتفت الرجلان إلى بعضهما البعض ، وغمغم الدكتور (محمد) فى توتر :

- من يمكنه أن يأتى إلى هنا ؟! .. نحن لم نستقبل زوارًا ، منذ سبع سنوات على الأقل .

اتجه (طارق) نحو الباب ، مغمغمًا :

- إجابة هذا السؤال ، تحتاج إلى إجراء بسيط .

فتح الباب ، وحدَّق فى الواقف أمامه بكل الدهشة :

- أنت ؟! ..

أجابه ذلك الأبيض الطويل الأنيق ، وهو يرفع راحته مع ابتسامة باهتة :

- نعم .. هو أنا .. هل تسمح لى بالدخول ؟!

مضت لحظات ، و(طارق) يحدِّق فيه ، قبل أن يفسح له الطريق :

- تفضَّل .

دلف الرجل إلى المعمل ، وألقى نظرة فيما حوله ، مغمغمًا :

- كما أذكره تمامًا .

انعقد حاجبا (طارق) فى شدة ، عند سماعه تلك العبارة ، وانطلق عقله يعمل بكل طاقته ، فى حين التفت الرجل إلى الدكتور (محمد) ، قائلًا بابتسامة باهتة :

- كيف حالك يا دكتور (محمد) ؟! .. تبدو منهكًا فى شدة .

تمتم الدكتور (محمد) :

- هذا صحيح .

فى حين قال (طارق) ، فى لهجة غلبت عليها الصرامة :

ـ أنا أيضًا سرى الشيب فى رأسى ، وفقدت الكثير من الشعر .

ثم أمسك معصمه فجأة ، وضغط عليه فى قوة ، وهو يستطرد فى صرامة حادة :

ـ أما أنت ، فلم يبد أنك قد تقدَّمت فى السن شهرًا واحدًا .

حاول الرجل أن يجذب معصمه من يده ، قائلًا فى حدة :

ـ إننى أعتنى بصحتى جيدًا .

قال (طارق) ، وهو يضغط معصمه أكثر :

ـ حقًّا !! .. وهل تعتنى بساعتك الكبيرة هذه أيضًا ؟!

ولأوَّل مرة ، بدا الرجل شديد العصبية ، وهو يحاول جذب معصمه ، من قبضة (طارق) ، هاتفًا :

ـ ماذا تفعل؟! .. ليس من حقك أن ...

قاطعه (طارق) بكل الصرامة :

ـ من أى زمن أتيت ؟!

وانتفض جسد الدكتور (محمد) ، مع سماعه ذلك السؤال !!!

انتفض بكل الذهول !!!

والخوف !!!

بلا حدود !!!

***



الفصل الرابع عشر

* مكان ما .. وزمان ما :

ارتجف قلب الدكتور (رياض) بين ضلوعه ، وهو يتطلّع عبر النافذة الوحيدة بالمعمل إلى ذلك الفراغ الضبابى الممتد أمامه إلى آخر البصر ..

إنه مشهد يستحيل أن يراه بشرى ، إلا فى هذه الحالة الاستثنائية العجيبة ، التى تفوق حتى روايات وأفلام الخيال العلمى ..

اللازمان ..

لقد وضعه ذلك الغامض ، فى منطقة ما ، بين الزمان والمكان ..

منطقة يساوى الزمن فيها صفرًا ..

وكعالم ، كان يمكنه استيعاب الفكرة ؛ باعتبارها مقبولة علميًا ..

ولكن كبشرى ، ما زال هذا يثير الرجفة فى أوصاله ..

خاصة وأنه لا يعلم أبدًا ، متى ينتهى هذا ..

وهل سيعود يومًا إلى الزمن الطبيعى ؟! ..

هل ؟! ..

أم أن ذلك الرجل ، سيتركه هنا إلى الأبد ؟! ..

هذا لو أن مصطلح (الأبد) يمكن أن يعنى شيئًا ، فى هذه الحالة ..

قبل أن يسترسل فى أفكاره ، ومض ذلك الضوء الأزرق الباهت فى ركن المعمل ، ثم برز ذلك الرجل هناك ..

وبنظرة خاوية ، اعتادت هذا الظهور المفاجئ ، تطلّع (رياض) إلى الرجل ، الذى تقدَّم نحوه ، ومدَّ يده إليه بمظروف كبير ، وهو يقول :

ـ أوراقك الجديدة يا دكتور (رياض) .

سأله ، وهو يمد يده ؛ ليلتقط المظروف فى حذر :

ـ أية أوراق ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ أوراق هوية جديدة ، باسم (رياض صاروفيم) ، أستاذ الأحياء السابق ، فى جامعة (بيروت) ، والعمر المدوَّن فى الهوية ، يناسب عمرك الفعلى .

أخرج (رياض) بطاقة الهوية ، وباقى الأوراق الثبوتية من المظروف ، وقال فى دهشة :

ـ المفترض هنا ، أننى من مواليد الثانى من فبراير ، عام ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين !!

ثم رفع عينيه إليه ، مستطردًا فى توتر :

ـ ولكننى من مواليد الثالث من إبريل ، عام واحد وسبعين !

أشار الرجل بيده فى هدوء :

ـ عليك أن تنسى هذا تمامًا .

هتف مستنكرًا :

ـ أنساه ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ هذا حتمى ..

وصمت لحظة ، ثم استدرك :

ـ فى الزمن الذى ستحيا فيه .

صدم القول (رياض) ؛ فاحتبست الكلمات فى حلقه لحظات ، قبل أن يقول ، فى صوت متحشرج :

ـ ماذا تعنى ؟!

جلس الرجل على مقعد قريب ، وهو يجيب :

ـ عندما تغادر هذا المكان ، ستجد نفسك فى عام ألفين وأربعة وثلاثين ، ومن غير الطبيعى أن تكون من مواليد ألف وتسعمائة وواحد وسبعين .

ألقى (رياض) نظرة أخرى على بطاقة هويته ، وقال فى عصبية :

ـ ولماذا لا أعود إلى زمنى؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لأنهم عندئذ سيعثرون عليك .

انتبه (رياض) إلى الأمر ، وغمغم فى توتر :

ـ وكيف سأحيا فى زمن مستقبلى ؟! .. أعنى بالنسبة لى .

ابتسم الرجل ، وقال :

ـ ستجد هذا ممتعًا للغاية .. ثق بى .

زفر (رياض) ، مغمغمًا :

ـ وهل أملك سوى هذا ؟!

تطلّع إليه الرجل لحظات ، ثم قال فى هدوء :

ـ ستحيا فى رغد يا دكتور (رياض) ، فبين تلك الأوراق ، ستجد رقم حساب

بنكى باسم (رياض صاروفيم) ، ولقد نقلت توقيعك ، من أوراق قديمة ، والحساب به خمسة ملايين دولار ، يمكن أن تكفيك ، حتى آخر العمر .

غمغم (رياض) :

ـ ولكننى سأفقد زمنى .

هزَّ الرجل كتفيه :

ـ وما الذى يربطك بزمنك ؟! .. ليست لك عائلة أو أصدقاء .. لقد عشت طيلة عمرك لعملك فحسب ، فأى فارق فى أن تمارسه فى زمنك ، أو فى الزمن الذى ستذهب إليه ؟!

تطلَّع إليه (رياض) لحظات ، ثم تمتم :

ـ لا شىء تقريبًا .

ابتسم الرجل ، ونهض إليه ، ووضع يديه على كتفه ، وهو يقول :

ـ مرحبًا بك فى الزمن الجديد يا دكتور (رياض) .

شعر (رياض) بذلك الضوء الأزرق الباهت يحيط به ، ثم دار رأسه فى عنف ، وبعدها اختفى معمله من حوله ، وظهر أمامه أثاث شقة فاخرة ..

وعبر النافذة الكبيرة ، شاهد أمواج المحيط ، تضرب رمال الشاطئ ..

إنه مقره الجديد ..

وزمنه الجديد ..

الزمن الذى سيحيا فيه ، والذى سيكون فيه معنى واضح للكلمة ..

كلمة الأبد ..

* * *

* كيبيك ، أكتوبر ٢٠٣٤م :

التقت مجموعة من علماء الأحياء والجيولوجيا الأمريكيين والكنديين حول ذلك الجسد ، المسجى على طاولة كبيرة ، وقد ذاب الجليد المحيط به أو كاد ..

كانوا كلهم يشعرون بمزيج من الفضول والدهشة والحيرة ، والاضطراب ، حتى إنهم لاذوا جميعهم بالصمت طويلا ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ المعطيات التى لدينا ، لا تتناسب أبدًا مع ما نراه أمامنا .

كلماته كسرت حاجز الصمت ، وجعلت آخر يقول :

ـ المفترض أن هذا الشىء يرقد تحت أطنان من الجليد ، الذى يزيد عمره عن مئات السنين ، وعلى الرغم من هذا ، فهو يرتدى زيًا حديثًا .

تمتم ثالث :

ـ حذاؤه لا يزال لامعًا .

سرت همهمات بينهم ، وكل منهم يحاول وضع تفسير للأمر ، حتى أشار كبيرهم إليهم بالصمت ، وقال :

ـ دعونا لا نتسرع فى استنباط أمور مسبقة .. سننتظر حتى يذوب الجليد المحيط بالجسد ؛ لنقوم بفحصه وتشريحه .

أشار أحدهم بسبّابته :

ـ هل ، لو سقط ذلك الشىء من السماء ، يمكن أن يغوص إلى ذلك العمق فى الجليد ؟!

تبادل الجميع نظرة متوترة ، وكأن الاحتمال لم يرد إلى أذهانهم قط ، ثم قال آخر فى تفكير :

ـ لم يرد أى بلاغ عن سقوط شىء كهذا ، ولو أنه هذا قد حدث ، دون أن يعلم به أحد ، فلا بد وأن يكون ساخنًا جدًّا ، حتى يغوص إلى هذا العمق فى الجليد .

هزَّ أحد علماء الجيولوجيا رأسه ، وقال :

ـ هذا الاحتمال مستبعد ؛ لأنه فى هذه الحالة ، سيترك ذلك فجوة فى الجليد المحيط به ، وهذا لم يحدث .

تمتم عالم أحيائى :

ـ هذا يزيد الأمر غموضًا .

عبارته ألجمت ألسنة الجميع ، وجعلتهم يتبادلون نظرة أخرى متوترة ، وعقولهم كلهم تلتهب بأسئلة حائرة ، يعلوها السؤال الأهم ..

كيف يمكن أن يتواجد إنسان حديث المظهر ، تحت طبقة جليدية ، عمرها مئات السنين ؟!

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

* * *

* القاهرة ، يناير ٢٠٢٩م :

فجأة ، زال التوتر من ملامح الرجل ، وتوقَّف عن محاولة انتزاع معصمه من قبضة الدكتور (طارق) ، والتمعت عيناه ، وهو يقول مع ابتسامة باهتة :

ـ عبقرى كعهدى بك دومًا يا دكتور (طارق) .

اتسعت عينا الدكتور (محمد) ، وهو ينقل بصره بينهما فى ذهول ، والدكتور (طارق) يقول فى صرامة :

ـ التقينا مرتين فحسب ؛ فكيف عهدتنى عبقريًّا ؟!

قال فى حسم :

ـ هذا ما تتصوَّره .

وتألَّقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ لقد كنت كظلك ، لأكثر من ثلاث سنوات .

هتف الدكتور (محمد) ذاهلًا :

ـ أى قول هذا ؟!

أدار الرجل عينيه إليه ، مجيبًا :

ـ الحقيقة يا دكتور (محمد) .. الحقيقة .. بعد أن خرجت أنت من اللعبة ، عملت أنا كمساعد للدكتور (طارق) ، لثلاث سنوات كاملة ؛ حتى أكمل بناء ناقوس الزمن .. بعد خمس سنوات من الآن .

تمتم (طارق) ، وهو يفلت معصم الرجل :

ـ كنت مساعدًا لى .

دلك الرجل معصمه ، وهو يقول :

ـ حتى آخر لحظة فى حياتك .

شهق الدكتور (محمد) ، وهو يهتف :

ـ آخر لحظة ؟!

أما (طارق) ، فلم يبد عليه الاهتمام ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ استغللت ناقوس الزمن ؟!

أشار الرجل بيده ، وهو يقول :

ـ أنت لم تكمل الأمر ، وتركتنى مع آلة زمن ، تسمح لى بالانتقال إلى الماضى أو المستقبل ، لزمن لا يزيد على مائة عام ، ولفترة لا تزيد على ساعة واحدة .. تركت لى سلاحًا جبارًا ، لا يمكن لأحد سواك تطويره أو إيصاله إلى الغاية التى تجعل أى إنسان قادرًا على إعادة كتابة تاريخ العالم .

قال (طارق) فى صرامة :

ـ وهل تصورتنى أصنع آلة الزمن ، لأعبث بتاريخ العالم ؟! .. هل تدرك أية فوضى يمكن أن تنشأ عن هذا ؟! .

هتف الرجل :

ـ أية فوضى ؟! .. آلة كهذه ، تجعلك تحكم العالم ، وتعيد تشكيله كما تحب .

غمغم الدكتور (محمد) ، وقد بدأ يستوعب الأمر :

ـ خلال مائة عام .

أشار الرجل بسبابته :

ـ وهذا ما أحاول تجاوزه .

التمعت عيناه ، على نحو مقلق ، وهو يتابع :

ـ لا بد من تطوير الآلة ، حتى يمكنها إرسالى إلى أى زمن أشاء ، ولأية فترة أرغب .. تصوَّر ماذا يمكن أن يحدث ، لو أنها نقلتنى إلى زمن الفراعنة ، ورأيت كيف بنوا الأهرامات ؟! .. لو نقلتنى إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، أو سقوط الاتحاد السوفيتى ، أو انهيار برجى التجارة العالميين .. أى فارق يمكن أن أحدثه عندئذ ؟! .

صاح به (طارق) :

ـ أنت لست إلهًا .. أنت مجرَّد بشرى ، لا يدرك تداعيات أى أمر يفعله .. هل تصوَّرت أن تغييرًا بسيطًا فى التاريخ ، سيصيب مواطن التغيير فحسب ؟! .. ألم تسمع أبدًا بتأثير الفراشة ؟!(*) .. التغييرات التى تصنعها ، قد تؤدى إلى انهيار كيان الأرض كله !!! .. ألم تفكر لحظة فى هذا ؟!

هزَّ الرجل كتفيه :

ـ مبالغات .. كل هذا مجرَّد مبالغات .

صاح فيه (طارق) :

ـ أهذا ما تراه ؟!

انعقد حاجبا الرجل فجأة ، وهو يقول فى حدة :

ـ لقد أجريت الكثير من التغييرات .. وما زال الكون قائمًا كما هو .. استكمال عملك كان يحتاج إلى عدة أمور .. أموال طائلة ، ومصدر طاقة هائل ، وقدرة فائقة للخلايا ، تساعدها على تجاوز كل العوامل الجوية ، مهما بلغت حدتها ، بالإضافة إلى الشىء الوحيد ، الذى لا يمكن استبداله .. عقلك يا دكتور (طارق) .

قال (طارق) فى صرامة :

(*) تأثير الفراشة : نظرية فيزيائية فلسفية ، وهى نظرية تربط أحداث الكون كلها ببعضها البعض ، باعتبار أنه لو رفرفت فراشة بجناحيها فى (الهند) ، فقد يتسبب تداعى هذا إلى حدوث زلزال فى (الأرجنتين) مثلًا .

ـ لهذا موَّلتنا وزوَّدتنا بأبحاث الدكتور (رياض) ؟!

أجاب الرجل فى سرعة :

ـ ولقد جلبت لكم مصدر طاقة هائلًا أيضًا ..

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ كأننى فى حلم .

لم يلتفت الرجلان إلى قوله ، والرجل يتابع فى حماس :

ـ فى زمنى ، ذكر التاريخ الكثير عن كشف قاعة الحكمة ، وذلك الوعاء داخلها ، والذى كان يحوى كمية كبيرة من الزئبق الأحمر ، الذى لا يعلم أحد كيف حصل عليه أجدادنا الفراعنة ؟! ولقد بحثت عن أفضل العلماء ، الذين يمكنهم التعامل مع تلك المادة الأسطورية .. فى البداية كان من الضرورى أن أوفِّر المال اللازم ، لهذا عدت إلى أقصى ما أمكننى فى الماضى ، وابتعت أرض صحراء (مدينة نصر) ، وبفضلها حصلت على تعويض قدره خمسة مليارات ، أمكننى بها تمويل أبحاثك يا دكتور (طارق) ؛ لاختصار سنوات من برنامج بحثك .. ومن خلال اختصار وقت البحث ، بالنسبة لعالم الآثار ، الدكتور (طه عبد الودود) ، أمكننى دخول قاعة الحكمة ، قبل موعد افتتاحها الرسمى ، وحصلت على وعاء الزئبق الأحمر ، ثم جلبت (ألكسندر كورباكوف) ، من الاتحاد السوفيتى القديم ، وساعدته على صنع جهاز توليد طاقة هائلة ، باستخدام الزئبق الأحمر .. وأنقذت الدكتور (رياض سمير) ، من قبضة الأمريكيين ، ومنحته فرصة مواصلة أبحاثه ؛ حتى أحصل على عقار يمنح الخلايا البشرية قوة جبارة ، تساعدها على احتمال أقسى المؤثرات الخارجية .

سأله (طارق) :

ــ وما دمت قد ملكت كل هذا ، فلماذا لم تعمل على تطوير الآلة بنفسك ؟!

مال الرجل نحوه :

ــ لأننى لست عالمًا ، ولا أمتلك نصف عبقريتك يا دكتور (طارق) .

تمتم الدكتور (محمد) :

ــ وماذا عنى ؟!

التفت إليه الرجل ، وقال :

ــ معذرة يا دكتور (محمد) ، ولكنك ستلقى مصرعك ، فى انفجار محدود هنا .

امتقع وجه الدكتور (محمد) ، ولم ينبس ببنت شفة ، فى حين انعقد حاجبا (طارق) فى شدة ، وهو يستعيد ما بدا له حلمًا فى حينها ..

الدكتور (محمد) ينهض ، ويستند إلى طاولة ، تنزلق عنها قنينة ..

ويدوى الانفجار ..

لقد شهد هذا ..

أو تصوَّر أنه قد شهده ..

نفض هذا عن رأسه فى سرعة ، وعاد يمسك معصم الرجل ، وهو يسأله فى صرامة :

ــ وماذا عن هذه الساعة ؟!

ابتسم مجيبًا :

ــ بدونها لا يمكن أن تعود إلى زمنك .

ثم انتزع معصمه ، من قبضة (طارق) ، مستطردًا :

ـ ولقد استغرق صنعها عامين .

قالها ، ووضع كفيه على كتفى (طارق) ، وهو يستطرد :

ـ ما دمت قد عرفت كل شىء ؛ فلماذا تبقى هنا ؟! .

وأمام عينى الدكتور (محمد) سطع ضوء أزرق باهت ، أحاط بالرجلين ، قبل أن يتلاشى ، ويتلاشى معه الرجلان !!

فى غمضة عين !!

* * *

* واشنطن ، ٢٠٢٠م :

شعر المستشار العلمى للرئيس الأمريكى بتوتر شديد ، يسرى فى كيانه ، وهو يراجع خريطة الطقس للعام السابق ، قبل أن يلتفت إلى الرئيس ، ويقلب كفيه ، قائلًا :

ـ ما زلت أشعر بالقلق ، يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس الأمريكى فى توتر :

ـ أما زلت تتبنى تلك النظرية ؟!

أشار بكفه ، قائلًا :

ـ لست أجد تفسيرًا سواها ، يا سيادة الرئيس .

وجلس على الأريكة الكبيرة ، فى المكتب البيضاوى ، وهو يتابع :

ـ التقلبات العنيفة غير الطبيعية فى الطقس ، بدأت مع اختفاء الدكتور (رياض يوسف) ، مخالفة بذلك كل توقعات الأرصاد ، على نحو لم يحدث منذ ستينيات القرن العشرين .

مال الرئيس على مكتبه ، يسأله :

ـ هل تعتقد أن اختفاءه ، أو اختفاء معمله ، هما السبب فى الانحرافات العنيفة هذه فى الطقس ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ حرائق غابات هائلة ، وموجات تسونامى مفاجئة(*) ، وزلازل فى معظم أنحـاء العالم ، واختلالات طقس عجيبة .. من كان يصدق أن تهبط الثلوج فى (فلوريدا)(**) ، فى هذا الوقت من السنة ؟!

تراجع الرئيس ، يسأله فى قلق :

ـ وما معنى هذا ؟!

عاد الرجل يهزُّ كتفيه :

ـ تأثير الفراشة .. شىء ما أفسد التوازن البيئى ، على نحو صناعى .

سأله الرئيس :

ـ أتظن أنه ذلك السلاح الروسى ؟!

مطَّ المستشار شفتيه ، قائلًا :

ـ لم نستطع إثبات كونه سلاحًا حتى الآن .

(*) التسونامى : مجموعة من الأمواج العاتية ، تنشأ من تحرك مساحة كبيرة من المياه ، مثل المحيطات ، وتنشأ أيضًا من : الزلازل والانفجارات البركانية تحت المائية ، وارتطام المذنبات ، وحركة القشرة الأرضية .

(**) فلوريدا : ولاية فى جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية ، اسمها يعنى بالإسبانية (أرض الزهور) ، وهى أكبر مدينة من حيث المساحة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وعاصمتها (تالاهاسى) .

قال الرئيس ، فى حزم متوتر :

ـ ليس هناك تفسير آخر .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :

ـ كل جواسيسنا فى (روسيا) ، على الرغم من انتشارهم ، لم يمكنهم إيجاد لمحة واحدة ، تثبت وجود سلاح كهذا ، لدى الروس أو غيرهم .

غمغم المستشار :

ـ وماذا لو أنهم يخفون هذا جيدًا ؟!

هزَّ الرئيس رأسه نفيًا :

ـ جواسيسنا متغلغلون فى كل الأوساط الروسية .

صمت المستشار لحظات مفكرًا ، ثم قال فى توتر :

ـ هذا لا يترك لنا سوى تفسير واحد .

تمتم الرئيس :

ـ كائنات الفضاء .

هزَّ المستشار رأسه فى قوة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لست أؤمن بوجود الكائنات الفضائية .

تطلَّع إليه الرئيس لحظة ، قبل أن يتمتم :

ـ رفضك هذا لا يعنى عدم وجودها .

انعقد حاجبا المستشار فى شدة ، وغمغم :

ـ هل تعلم شيئًا لا أعلمه يا سيادة الرئيس ؟!

صمت الرئيس لحظات مترددًا ، ثم قال فى شيء من الحذر :

ـ الأمور العادية فحسب .

تطلّع إليه المستشار طويلا ، وكأنه يحاول سبر أغواره ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ سألتك من قبل عن (المنطقة ٥١) يا سيادة الرئيس(*) .

صمت الرئيس لحظات ، ثم هز كتفيه ، وقال فى حذر :

ـ هناك أمور لا ينبغى أن يعلم عنها أحد .

قال المستشار فى ضيق :

ـ ولكننى مستشارك العلمى .

أجابه فى سرعة :

ـ هذا لا يمنحك الحق ، فى معرفة مثل هذه الأمور .

لوَّح الرجل بكفه :

ـ الكل يعرف بأمر (المنطقة ٥١) .

أجاب بنفس السرعة :

ـ كشائعة فحسب ، ولكن أحدًا لن يستطيع الجزم بوجودها .

ضاقت المسافة بين حاجبى المستشار ، وهو يغمغم :

ـ وهل بها حقًّا ، جثث كائنات فضائية ؟!

صمت الرئيس لحظات أخرى ، ثم تمتم :

ـ ربما .

(*) المنطقة ٥١ : هو الاسم المستعار للقاعدة العسكرية فى جنوب ولاية (نيفادا) ، فى غرب الولايات المتحدة الأمريكية ، يقع فى منتصفها مطار سرى عسكرى ضخم ، والهدف من وجود هذه القاعدة ، هو دعم تطوير واختبار الطائرات التجريبية ، ونظم الأسلحة المتطوّرة .

سأل فى ضيق :

ألم تعد ، أثناء حملتك للرياسة ، بكشف أسرار حادثة (روزويل) ؟!

تنهَّد الرئيس ، وخفض عينيه قليلا ، ثم عاد يرفعهما ، مجيبًا :

ـ كل الرؤساء السابقين وعدوا بهذا .

زفر المستشار العلمى فى توتر ، وقال :

ـ فى هذه الحالة ، ينبغى وضع الاحتمال فى الحسبان يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس فى حزم :

ـ راداراتنا وأقمارنا الصناعية ، لم ترصد اقتراب أى جسم من الأرض .

زفر المستشار العلمى مرة أخرى ، ثم قال فى يأس :

ـ أعتقد أنه ، فى غياب المعلومات ، لن يمكننا حل هذا اللغز أبدًا يا سيادة الرئيس ..

وكان على حق تمامًا ..

ففى غياب المعلومات ، سيظل هذا اللغز غامضًا ، حتى آخر الزمان ..

بافتراض أنه هناك بالفعل هذا الشىء ..

الزمان !!!

* * *



الختام

*** القاهرة ، أغسطس ٢٠٢٥م :**

انعقد حاجبا الكاتب الصحفى الشهير (إبراهيم عيسوى) ، وهو يعيد ترتيب أوراق مكتبه ، وأمسك بورقة ، حوت اسمًا بخط يده ، وراح يتطلّع إليها طويلا ، قبل أن يضغط زر استدعاء سكرتيرته ، وما إن دخلت إلى مكتبه ، حتى رفع الورقة أمامها ، وهو يسألها فى شىء من العصبية :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

تطلّعت السكرتيرة إلى الورقة لحظات ، وبدت حائرة ، وهى تهزّ كتفيها ، قائلة فى اضطراب :

ـ لست أدرى ما هذا يا أستاذ (إبراهيم) !!

قال ، وعصبيته تتزايد :

ـ لقد وجدته بين أوراقى هنا .

تطلّعت إلى الورقة مرة أخرى ، فى توتر شديد ، ثم قالت فى حذر :

ـ ولكنه خطك أنت يا أستاذ (إبراهيم) !!

هتف :

ـ أعلم هذا .

بدا وكأنه سيضيف شيئًا آخر ، إلا أنه تراجع بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وبدت على ملامحه أمارات تفكير عميق ، قبل أن يشير بيده ، ويبدو شاردًا ، وهو يغمغم :

ـ اطلبى من المراسل أن يأتى .

أومأت برأسها إيجابًا ، وهرعت خارج الحجرة ، فى حين تراجع هو فى مقعده ، وتطلَّع إلى الورقة مرة أخرى ، ثم غمغم :

ـ عجبًا !!

لم تمض لحظات ، حتى دخل المراسل إلى مكتبه :

ـ تحت أمرك يا أستاذ (إبراهيم) .

اعتدل (إبراهيم) ، ورفع الورقة أمامه ، وهو يسأله فى انفعال :

ـ هل تعرف شيئًا عن هذا ؟!

انعقد حاجبا المراسل ، وهو يتطلَّع إلى الورقة ، مغمغمًا :

ـ إنه خطك يا أستاذ (إبراهيم) .

زمجر فى عصبية :

ـ ليس هذا ما سألتك عنه .

عاد المراسل يتطلَّع إلى الورقة فى حيرة :

ـ سيادتك لم تخبرنى به أبدًا .

ألقى (إبراهيم) الورقة على سطح مكتبه ، وهو يقول فى حدة :

ـ ما معنى هذا بالضبط ؟! .. الورقة كانت بين أوراقى ، وهى تحمل خطى .. ما فى هذا من شك ، ولكننى أجهل كل شىء عنها !!

تمتم المراسل ، فى حيرة متوترة :

ـ وأنا أيضًا يا أستاذ (إبراهيم) .

التقط (إبراهيم) الورقة ثانية ، وألقى نظرة عليها ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ (نجيب باشا شوكت) ـ أرض (مدينة نصر) !! .. ما معنى هذا ؟!

هزّ المساعد رأسه فى حيرة :

ـ لم أسمع هذا الاسم قط !! .. ثم ما علاقته بأرض (مدينة نصر) .

غمغم (إبراهيم) :

ـ لا أعلم .

ثم اعتدل فى حزم ، مستطردًا :

ـ ولكن دورنا - كصحافة - أن نعلم .

وناول الورقة للمراسل ، وهو يضيف :

ـ ابحث عن (نجيب باشا شوكت) هذا ، وعن علاقته بأرض (مدينة نصر) ، وأريد كل المعلومات على مكتبى ، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة .

أجابه المراسل بإيماءة من رأسه ، وهو يتساءل فى أعماقه ..

من (نجيب باشا شوكت) هذا ؟! ..

من ؟! ..

* * *

*** القاهرة ، يناير ٢٠٣٤م :**

انتفض (طارق) فى عنف ، وهو يستعيد وعيه فجأة ..

كان آخر ما يذكره هو أن ذلك الرجل قد وضع يديه على كتفيه ، فى معمله ..

وبعدها أحاطت به تلك الأضواء ..

ودار رأسه فى عنف ..

وكان ذلك الوميض الأزرق الباهت ..

ثم ساد الظلام ..

لهث فى قوة ، ثم حاول أن ينهض ، وهو يتطلَّع لما حوله ..

كانت الرؤية مشوَّشة فى البداية ..

ثم راحت تتضح ..

وتتضح ..

وتتضح ..

ويا للمفاجأة !! ..

إنه ما زال داخل معمله ..

ولكنه لا يبدو تمامًا كما يعرفه ..

لقد أعيد ترتيبه ، لإفساح مجال لذلك الجسم اللامع ، الذى يتوسطه .. ناقوس كريستالى كبير ، متصل بالكثير من الأسلاك والأجهزة ، وحوله دوائر شبه مكتملة ، من أنابيب زجاجية ، تتصل بجهاز صغير ..

إنه نفس معمله ..

ولكن فى زمن آخر ..

زمن مستقبلى على الأرجح ..

« هل استعدت وعيك ؟! .. »

أتاه صوت ذلك الرجل ؛ فالتفت إليه فى حركة حادة ، وحدَّق فيه لحظات ، ثم غمغم :

ـ أين أنا ؟!

أجابه الرجل فى اهتمام :

ـ فى نفس المعمل ، الذى تركته خلفك يا دكتور (طارق) ، وما تراه أمامك هو آلة الزمن ، كما ابتكرتها عبقريتك .

غمغم (طارق) فى توتر :

ـ ذلك الناقوس الكريستالى ؟!

هتف الرجل فى حماس :

ـ إنه هو .

نهض من مقعده ، واتجه إلى الناقوس ، ونقر عليه بأصابعه ؛ فصدر عنه صوت منغوم ، امتزج بصوته ، وهو يستطرد :

ـ أنت حقَّقت ما تصوره البعض من المستحيلات العلمية ، ولكن القدر لم يمهلك ، حتى تتم عملك كما أردت .. تركته غير مكتمل .

غمغم (طارق) :

ـ ولكنه ساعدك ، على السفر عبر الزمن .

أشار بيده فى انفعال :

ـ لمسافة محدودة ، ومدة قليلة ، حتى إن الأمر كان يحتاج إلى خطة شديدة التعقيد والتشابك ؛ لسد الثغرات ، التى تركتها خلفك .

تمتم (طارق) ، وهو يعتدل :

ـ التمويل والطاقة ، وقوة الخلايا ، وقدرتها على مقاومة الظروف المحيطة .

أجابه فى حماس :

ـ بالضبط .. لقد استطعت حل كل المعضلات ، دون أن يتأذى أحد .. أرشدت الدكتور (طه) إلى مدخل قاعة الحكمة ؛ فتوصل إليها ، قبل عامين من الموعد ، الذى حدده التاريخ ، وفى المقابل ، حصلت منه على وعاء الزئبق الأحمر ، وأنقذت (كورباكوف) من الموت فى قبو (كى جى بى) فى (موسكو) ووضعت الزئبق الأحمر تحت يديه ؛ فصنع جهاز الطاقة ، القادر على نقلى لآلاف السنين فى الماضى ، وللزمن الذى أختاره ، والوقت الذى يناسبنى .

غمغم (طارق) فى تفكير :

ـ وأنقذت الدكتور (محمد) من انفجار المعمل .

بدت دهشة حقيقية على وجه الرجل :

ـ انفجار المعمل ؟!

تطلّع إليه (طارق) لحظات ، فى تفكير عميق ، ثم اعتدل يسأله :

ـ ولماذا قفزت بى إلى هذا الزمن يا ..

أجابه فى سرعة :

ـ (صفوت) يا دكتور (طارق) .. مساعدك (صفوت) .. لقد أحضرتك إلى هنا ؛ لتكمل عملك ، ومعك كل ما تحتاج إليه .

انعقد حاجبا (طارق) ، وهو يتطلّع إليه ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ تقول إن أحدًا لم يضار !!

أشار بيده :

ـ مطلقًا .. الدكتور (طه) نال الفضل ، ولم يسأله أحد أبدًا ، بصفة رسمية على الأقل ، عن الوعاء المفقود ، والدكتور (رياض) و(كورباكوف) يعيشان فى زمن مختلف ، ولكنهما سعيدان بهذا .

غمغم (طارق) ، وكأنه يُحدِّث نفسه :

ـ بدون عقار تقوية الخلايا ، سينهار جسداهما حتمًا بعد حين .

ابتسم (صفوت) :

ـ اطمئن .. لقد حقنتهما به ، وحقنتك أنت أيضًا ، خلال غيبوبتك .

سأله فى حذر :

ـ وماذا عنك ؟!

اتسعت ابتسامة (صفوت) :

ـ كنت أوَّل من حقن نفسه به .

تطلَّع (طارق) إلى الناقوس الكريستالى ، وهو يغمغم :

ـ وتريد منى استكمال عملى ؟!

أجابه بكل الحماس :

ـ ما رأيك ؟!

تطلَّع مرة أخرى إلى الناقوس ، وسأل ، وهو يشير إليه :

ـ ما معنى تلك الأنابيب الزجاجية حوله ؟!

انعقد حاجبا (صفوت) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ عجبًا !! .. لم تكن هنا من قبل !!

حملت قسمات (طارق) علامات تفكير عميقة ، ثم اعتدل ، ورفع رأسه ، قائلًا فى حزم :

ـ حسنًا .. سأكمل العمل .

هتف (صفوت) :

ـ عظيم .

استدرك (طارق) فى حزم :

ـ ولكننى سأراجع كل الأمور أوَّلًا .. كل الأبحاث ، والمعلومات ، والمعادلات والبيانات .

أجابه بكل حماس :

ـ بالطبع .. دعنا نبدأ .

وعلى الرغم من حماسه الشديد ، لم يدرك أبدًا ما يدور فى عقل الدكتور (طارق) ..

أبدًا ..

* * *

* كيبيك ، سبتمبر ٢٠٣٤م :

فى حرص شديد ، نقل فريق العلماء جسد ذلك الرجل ، الذى أخرجوه من الناقوس الكريستالى ، إلى محفة خاصة ، نقلوها فى عناية فائقة إلى حجرة الفحص ، وتحسَّس أحدهم الجسد ، وهو يغمغم :

ـ ذاب الجليد تمامًا .. والعجيب أن الجسد قد استعاد طراوته تمامًا ، كما لو أنه قد مات منذ لحظات .

تمتم آخر ، وهو يرتدى رداء الفحص :

ـ هذا ما يحدث عادة ، عندما يذوب الجليد .

بدءوا فى نزع ثياب الرجل فى حرص ، وأحدهم يسجِّل :

ـ الحلة التى يرتديها ، من طراز عام ٢٠٣٣م ، وتحمل اسم مصمم غير معروف ، وإشارة تقول : إنها من إنتاج مصرى .

تساءل أحدهم :

ـ هل يشير هذا إلى أنه من أصل مصرى ؟!

تمتم الأوَّل :

ـ ليس بالضرورة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ السؤال ما زال ، كيف وصل إلى ذلك المكان ؟!

تساءل ثانٍ :

ـ أأنتم واثقون ، من أن الجليد الذى كان يحيط به ، يعود إلى مئات السنين ؟!

مطَّ الأوَّل شفتيه :

ـ هذا ما يؤكده الجيولوجيون .

تساءل :

ـ وكيف لهم أن يعلموا ؟! .. الجليد هو الجليد ، منذ ملايين السنين !!

هزَّ الأوَّل كتفيه :

ـ لديهم أساليبهم ، فهو عملهم .

ثم التقط مشرطًا ، وتأكَّد من حدته ، مضيفًا :

ـ دعنا نتوقَّف عن التساؤل مؤقتًا ، ونؤدى عملنا فحسب .

تمتم أحدهم :

ـ أنت على حق .

تحسَّس الأوَّل الجسد مرة أخرى ، ثم اتجه بالمشرط نحو صدر الجسد المسجى أمامه ، و ...

وفجأة ، ارتدَّ فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ..

وسقط المشرط من يده ..

أما الباقون ، فقد فغروا أفواههم فى ذهول ، وهم يتراجعون فى حدة ..

فالمفاجأة كانت مذهلة !!!

إلى حد مخيف !!!

***

*** القاهرة ، يناير ٢٠٢٩م :**

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه ، وهو يشعر بتثاقل شديد ، وبإرهاق يسيطر على كيانه كله تقريبًا ، فغمغم :

ـ رباه !! .. حان الوقت للتقاعد .

سمع طرقًا على باب المعمل ، فتمتم :

ـ ترى من القادم ؟! .. لماذا لم يحضر (طارق) حتى الآن ؟! .. أين ذهب ؟!

فتح الباب ، وارتفع حاجباه فى شدة ، وهو يتمتم :

ـ (طارق) ؟! .. أين كنت ؟!

تنهَّد (طارق) ، وهو يدلف إلى المعمل ، مجيبًا :

ـ إنه أمر يطول شرحه ..

وجلس على أوَّل مقعد صادفه ، مستطردًا :

ـ وإلى ذهن متفتح للغاية .

التقى حاجبا الدكتور (محمد) ، وهو يحدق فيه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ (طارق) .. إنك تبدو مختلفًا !!

تنهَّد (طارق) ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا .

واصل الدكتور (محمد) :

ـ لم أرك منذ ساعات قليلة ، وعلى الرغم من هذا ، تبدو وكأنك أكبر سنًّا .

صمت (طارق) لحظات ، ثم أجاب فى بطء :

ـ أنا كذلك بالفعل .

ازداد التقاء حاجبى الدكتور (محمد) ، ثم لم يلبث أن جذب مقعدًا، وجلس إلى جوار (طارق) ، يسأله فى قلق :

ـ أين كنت بالضبط ؟!

أجابه ، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة :

ـ حاول أن تستوعب الأمر ، وسأخبرك .

« المشكلة لا تكمن فى الناقوس .. » ..

قالها (طارق) فى حزم ، فاعتدل (صفوت) ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ أين تكمن إذن ؟!

أشار إلى ساعة (صفوت) الكبيرة ، وهو يجيب :

ـ فى جهاز التوجيه هذا .

ألقى (صفوت) نظرة على الساعة ، مغمغمًا :

ـ حقًّا ؟!

راح (طارق) يدق بأصابعه على أزرار الكمبيوتر الرئيسى ، مغمغمًا :

ـ سأعمل على إعادة برمجتها ؛ لترسلك إلى أى عصر تشاء .

خلع (صفوت) الساعة فى لهفة ، وناوله إياها :

ـ أرجوك افعل .

ولكن عندما مدَّ (طارق) يده إليه ، سحب الساعة فى سرعة ، وهو يقول فى شك :

ـ دكتور (طارق) .. إنك لا تخدعنى .. أليس كذلك ؟!

أجابه (طارق) فى بساطة :

ـ ولماذا أفعل ؟!

تـردَّد (صفـوت) لحظـة أخـرى ، ثـم ناولـه السـاعـة فـى حـذر ، فأوصلها (طارق) بالكمبيوتر ، وراحت أصابعه تعمل على أزراره فى سرعة ..

وفى حذر ، راح (صفوت) يراقبه ، ولكن عمل (طارق) طال ، حتى شعر (صفوت) بالملل ، فتساءل فى عصبية :

ـ هل سيستغرق هذا طويلًا ؟!

أجابه فى صرامة ، وهو يواصل عمله :

ـ إنه ليس برنامج حسابات بسيط .

تراجع فى مقعده ، وتضاعف شكه وقلقه ، حتى اعتدل (طارق) ، وقال :

ـ يمكنك أن تلقى نظرة لو أردت .

نهض إليه فى لهفة ، ولكنه لم يكد ينحنى ، ليلقى نظرة على الكمبيوتر ، حتـى ارتطـم رزاز مـا فـى وجهـه ، فتراجـع فـى حركـة حـادة ، وحـدَّق فـى الدكتور (طارق) ، الذى يمسك بخاخة صغيرة ، ويقول :

ـ تحتاج إلى قدر من النوم .

هتف (صفوت) ، وهو ينقض عليه :

ـ أيها الـ ..

لم يستطع إكمال عبارته ، وهو يترنَّح فى شدة ، وحاول أن يقول شيئًا ، ولكن عقله دار فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ المفترض من ذلك العقار أن ...

لم يستطع إتمام عبارته ، وهو يهوى أرضًا فاقد الوعى ..

« ومن أين حصلت على تلك البخاخة ؟! .. » ..

ألقى الدكتور (محمد) السؤال فى حيرة ، فزفر (طارق) ، وهو يجيب :

ـ التجربـة أثبتت أن السفـر عبـر الزمـن ، أكثـر تعقيدًا ، مـن كـل مـا كتـبه العلماء ، عن فلسفة السفر عبر الزمن .

اقترب منه ، يسأله فى فضول قلق :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟!

صمت (طارق) لحظات ، ثم هزَّ رأسه ، قائلًا :

ـ لو أننى أكملت روايتى ، فربما تجد الجواب أمامك يا دكتور (محمد) .

تراجع الدكتور (محمد) فى توتر :

ـ أكملها إذن .

التقط (طارق) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ بعد أن فقد الوعى ، أصبح ناقوس الزمن أمامى ، وساعة التوجيه فى يدى ، وطبقًا لما خططته مسبقًا ، كان علىَّ أن أتحرَّك فى سرعة .

سأله فى شغف :

ـ للعودة إلى زمنك .

هزَّ رأسه نفيًا ، وتنهَّد مغمغمًا :

ـ بل لإصلاح كل ما أفسده .

غمغم الدكتور (محمد) فى دهشة مستنكرة :

ـ ولكن كيف ؟! .. (صفوت) هذا هو من أوحى إليك ، بكيفية تطوير آلة الزمن ، وهو الذى موَّل أبحاثنا ، بنقود حصل عليها عبر الزمن ، والمفترض ، لو أنك أصلحت كل هذا ، ألا يكون لوجودنا معًا الآن معنى !

تنهَّد (طارق) ، وقال :

ـ ألم أقل لك .. السفر عبر الزمن شديد التعقيد .

انعقد حاجبا الدكتور (محمد) ، وهو يحاول استيعاب الأمر ، والعثور على منطق فيه ، ثم لم يلبث أن أدرك أنه يبحث عن المنطق ، فى أمر يفوق كل منطق ؛ فاكتفى بهز رأسه ، قائلًا بكل توتره :

ـ وماذا عمن انتزعهم من أزمنتهم ؟!

أجابه فى ضيق :

ـ اجتمعت بهم ، وكلهم قرَّروا أنهم يفضلون ما وصلوا إليه ، وأكد لى الدكتور (رياض) أنه سيجد حلًّا لبقائهم ، فى زمن مختلف ، دون أن تنهار خلاياهم .. ولقد أعطانى تلك البخَّاخة .

تراجع الدكتور (محمد) ، مغمغمًا :

ـ إذن فتغيير التاريخ مستحيل ، كما تقول فلسفة السفر عبر الزمن .

هزَّ (طارق) رأسه ، ولوَّح بكفه :

ـ ليس كما تتصوَّر .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ لقد أنقذتك من انفجار المعمل ، ووضعت تلك البخاخة فى جيب المعطف ، الذى كنت أرتديه ، عندما نقلنى (صفوت) إلى زمنه .

واكتسى صوته بالمرارة ، وهو يضيف :

ـ حتى أنا ، لم أستطع مقاومة فكرة العبث بالتاريخ .

تمتم الدكتور (محمد) مبهوتًا :

ـ إنه سلاح جبار .

هزَّ (طارق) رأسه فى قوة ، قائلًا فى حزم :

ـ بل كارثة جبارة .

التقط نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة ثائرة انفعالاته ، قبل أن يتابع :

ـ تصوَّر لو أن نظامًا ديكتاتوريًا ، امتلك سلاحًا رهيبًا كهذا ، واستخدمه للسيطرة على الماضى ، وإعادة كتابة التاريخ ؛ ليضمن سيطرته على العالم كله ، واستعباد كل من فيه!! .. تصوَّر لو أنه أرسل أسلحة حديثة ، وطائرات خارقة ، إلى زمن المماليك مثلا ، أو إلى الحرب العالمية الأولى ، أو الثانية .. كيف سيكون التاريخ عندئذ ؟!

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ لن يكون هناك وجود لـ(إسرائيل) .

عاد (طارق) يهز رأسه فى قوة :

ـ لن يقتصر الأمر على هذا .. ربما لا نوجد نحن أيضًا ، لو تم العبث بتاريخنا .

اتسعت عينا الدكتور (محمد) :

ـ لم يجل هذا بخاطرى!!

أومأ (طارق) برأسه ، وقال فى حزم :

ـ لهذا لا بد من إنهاء عملنا .

بُهت الدكتور (محمد) ، وهو يرد ، فى صوت مختنق :

ـ ننهى عشر سنوات ، من العمل الدءوب !!

أجابه فى صرامة :

ـ ليس هذا فحسب .. سندمِّر كل الأبحاث والنتائج .

تمتم الدكتور (محمد) فى هلع :

ـ يا إلهى !

أجابه (طارق) فى صرامة ، وهو يمحو كل شىء ، من شاشة الكمبيوتر بالفعل :

ـ لن أكون أنا من يقود الأرض إلى هكذا كارثة .

هتف به الدكتور (محمد) :

ـ مهلًا .. قبل أن تدمر كل شىء ، أخبرنى ماذا فعلت بذلك الرجل ؟

زفر (طارق) ، وقال :

ـ عندما يستعيد وعيه ، سيدرك أننى قد عدت إلى زمنى ، وعندئذ سيدفعه الغضب ، إلى محاولة تغيير الأحداث لصالحه ، عبر الزمن .

قال الدكتور (محمد) فى لهفة :

ـ ولكن ساعة التوجيه بحوزتك .

هزَّ (طارق) رأسه :

ـ سيجد لديه ساعة أخرى ، مماثلة تمامًا ، صنعتها خلسة ، خلال الفترة التى قضيتها معه .

قال الدكتور (محمد) فى قلق :

ـ وماذا لو استخدمها ..

قاطعه (طارق) :

ـ ليته يفعل .. فهذا ما أعتمد عليه .

انعقد حاجبا الدكتور (محمد) ، وهو يقول :

ـ ماذا فعلت بالضبط ؟!

صمت عدة لحظات ، ثم قال :

ـ أعدت برمجة الساعة الجديدة ، وأحطت آلة الزمن بدوائر من الليزر شديد القوة ، استعرتها من الدكتور (هانز إبسن) ، أستاذ الليزر ، فى جامعة (أوسلو) ، وعندما يحاول (صفوت) استخدام الآلة ، والسفر إلى أى زمن ، أيًّا كان ، ستعمل دوائر الليزر بقوة هائلة ؛ لتحيط الناقوس الكريستالى بحلقات من الليزر شديد القوة .

غمغم الدكتور (محمد) مبهورًا :

ـ وتصنع فى مركزها دوّامة زمنية .

أومأ (طارق) برأسه :

ـ ثقب دودى(*) سينقل الناقوس براكبه ، عبر الزمان والمكان ، إلى ألف عام ، قبل زمننا هذا .

صمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ تحت جليد القطب الشمالى .

بُهت الدكتور (محمد) ، واتسعت عيناه لحظات ، ثم هزَّ رأسه ، واشترك مع (طارق) ، فى تدمير كل ما يتعلق بآلة الزمن ..

تمامًا ..

* * *

(*) الثقب الدودى : هو ممر دودى تخيلى ، موجود داخل الثقوب السوداء ، ووجوده يقتصر ـ حتى الآن ـ على المعادلات الرياضية النظرية التى تؤكِّد أنه ثقب خارج الزمان والمكان ، ولكن لم يتم رصد مثله ، حتى لحظة كتابة هذه السطور .

*** كيبيك ، سبتمبر ٢٠٣٤م :**

اندفع الوزير الكندى ، عبر ممرات مركز (كيبيك) الأحيائى ، وهو يلهث ، ويتحدث مع الوزير الأمريكى عبر الهاتف :

ـ نعم .. إنك لم تخطئ السمع .. ذلك الرجل المتجمِّد ، داخل الناقوس الكريستالى ، استعاد وعيه ، وفرَّ من المركز .

هتف به الأمريكى ، وهو يستعد للصعود إلى الطائرة ، التى ستنقله إلى المركز :

ـ كيف هذا ؟! .. لقد ظل مجمدًا ، تحت طبقة من الثلوج ، لمئات السنين؟!

لهث الكندى أكثر ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا ما حدث .. كان دكتور (ديناهيو) يهم بتشريحه ، عندما فتح عينيه ، واستيقظ ، وفى غمرة ذهول فريق العلماء المشترك وذعرهم ، نهض واستعاد ثيابه وأشياءه ، وفرَّ من المركز .

حمل الهاتف صوت الأمريكى الغاضب ، وهو يهتف :

ـ وأين كان رجال أمنكم ؟!

أجابه فى توتر :

ـ لم يتخيَّل أحد حتى احتمال حدوث هذا .. مهمتهم كانت منع أى مخلوق من الوصول إلى الجسد ، لا منع الجسد نفسه من الخروج !!

هتف الأمريكى :

ـ أرسلوا إلى كل نقاط التفتيش .. وزعوا نشرة بأوصافه ، المهم ألا يفلت من بين أيدينا أبدًا .. هل تسمعنى ؟ .. أبدًا .

فى نفس اللحظة التى نطقها كان (صفوت) يتجه نحو المطار ، وهو غارق فى أفكاره ..

عقار الدكتور (رياض) كان أقوى حتى مما تصوَّر ..

لقد قاومت خلاياه ألف عام تحت الجليد ..

ثم عادت للعمل ..

ومن حسن حظه أن يحمل فى بطانة ثيابه دومًا ، وثيقة سفر دولية متقنة التزوير ، ستتيح له العودة إلى (مصر) ، على متن أول طائرة ..

إلى حيث أخفى نسخة ثانية من آلة الزمن ومستلزماتها ...

تنهَّد وهو يستعيد ذكريات طويلة ..

إنها المحاولة الرابعة ، التى تفشل فيها خطته الزمنية ..

ولكنه ــ ككل مرة ــ يستطيع تفادى الأخطاء ، فى خطته الزمنية التالية ..

سيعود مرة أخرى إلى الماضى ، وسيبدأ اللعبة من جديد ، ويتفادى كل ما أفشله ، فى كل المرات السابقة ..

ولا داعى للقلق ..

فالزمن كله ملكه ، إلى الأبد ..

هذا لو أنه ، فى وجود آلة كهذه ، يمكن أن يكون هناك معنى له ..

للزمن !!!

***

(تمت بحمد الله)

الرحاب

٨ يناير ٢٠١٨م





د. نبيل فاروق



الدائرة

الزمن ... البعد الرابع للمادة، كما وصفه أينشتين ...

فماذا لو استطعنا عبور ذلك البعد الرابع، والتجوّل فيه جِيئة وذهابًا ؟!

ماذا لو سيطرنا على الزمن، وصار الماضي والحاضر والمستقبل مجرّد دائرة واحدة ؟!

أية قوة يمكن أن نمتلكها حينئذ ؟!

بل أية سطوة ؟!...

هل سنصير قادرين على تغيير مسار التاريخ، وإعادة توزيعه لصالحنا ؟!...

أم ستدور علينا نحن أيضًا، تلك الدائرة ؟!

دائرة الزمن .


www.rewayatmasreya.com


facebook.com/rewayatmasreya

2 / 12 / 018





